الإدارة الإسلامية

في عز العرب

تأليف

(محمد كرد علي)

طبع على نفقة صاحبة العصمة قوت القلوب هانم الدمرداشية

القاهرة

مطبعة مصر ٩٠ شارع نوبار باشا (سابقاً شارع الدواوين)

١٩٣٤

M.A.LIBRARY, A.M.U.



AR18618



بسم الله الرحمن الرحيم

هذه محاضرات ثمان فى الادارة الاسلامية على عهد عزّ العرب حاضرت بها فى قاعة الجمعية الجغرافية الملكية تحت إشراف كلية الآداب من فروع الجامعة المصرية — جمهوراً من الطبقة المستنيرة فى القاهرة فى شهر رمضان سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) . وكان ممن حضر هذه المسامرات من أولها إلى آخرها صاحبة العصمة السيدة المهذبة قوت القلوب هانم الدمرداشية من ربات البيوتات المصرية الشريفة وسليلة البيت الكريم بيت أبى عبد الله المحمدى الشهير، فراقها أسلوبها فى البحث . وبالاتفاق مع عميد كلية الآداب العلامة الدكتور منصور فهمى بك رأت طبع هذه المحاضرات على نفقتها لتعم فائدتها العالم الاسلامى . فكان عمل هذه العقيلة النبيلة برهاناً آخر على نهضة المرأة المصرية المسلمة، وحرصها على مساهمة الرجال فى الأخذ بمذاهب الثقافة العربية ، فأضافت مكرمة أخرى الى مكارم أهلها . جزاها الله عن عملها الصالح أفضل الجزاء .

محمد كرد على

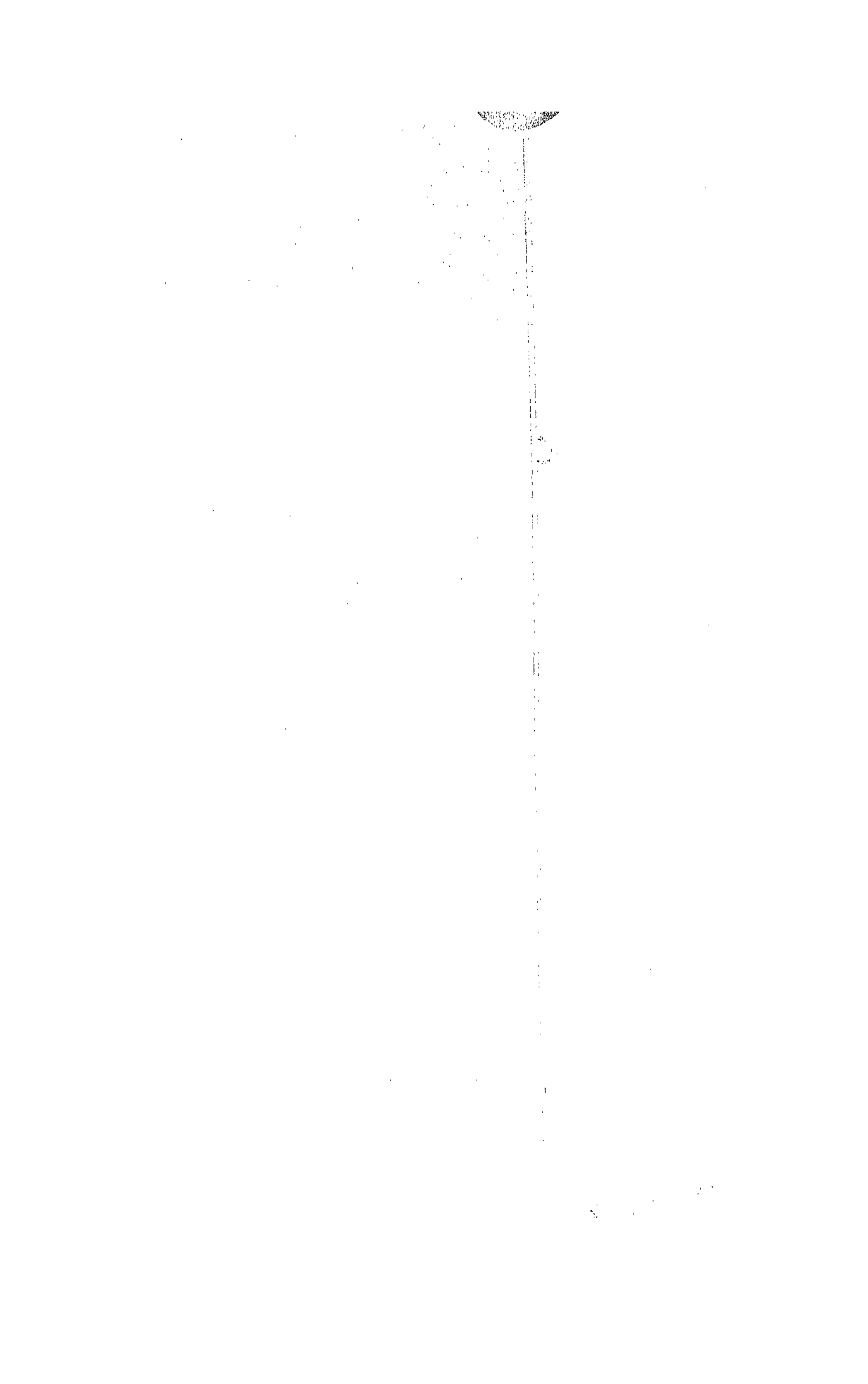
القاهرة فى ٢١ شوال سنة ١٣٥٢ و ٦ فبراير سنة ١٩٣٤ م

الإدارة الإســـــلامية

نظر فى الموضـــــوع

كثيراً ما حاول بعض الباحثين فى شؤون الأسلام على عهده الأول أن يصوروا العرب فى غير صورتهم ذهاباً مع أهواء النفوس ، وان يستنتجوا استنتاجات ناقصة فى أحكامهم على الرسول عليه الصلاة والسلام و يغضوا من بعض أصحابه و ينحوا انحاء شــديداً على المدنية الأسلامية زاعمين أن العرب حتى فى الإســلام لم يعملوا عملاً يذكر فى باب التمدين وأنهم مقلدون فى جميع أعمـالهم ما زادوا على ما تعلموه من الروم والفرس من أســاليب الحضارة . ولو صح ما قالوا لـكانت قوانين فارس والروم صالحة للبقاء وافية بالغرض ، ولمـا استطاع العرب أن ينزعوا سلطان تينك الأمتين العظيمتين عن أجمل أصقاع الأرض و يحكموها و ينظموها على مثال مبتكر لم تـكد تشهد البلاد مثله .

وسنثبت فى سلسلة هذه المحـاضرات فى الإدارة الإسلامية على عهد التفوق أن الأسلام ابتكر وأبدع فى الحرب والإدارة والسياسة كما اخترع وأبدع فى العلم والتشريع وأسباب المدنية على نحو ما يتجلى فى صفحات التاريخ الأسلامى ، ونأتى بالبراهين التى لا يسع منصفاً عارفاً انـكارها . ونكتفى الآن بأن نقول إن من أهم المعجزات المحمدية بعد القرآن هذه الطبقة العالية من الصحابة الـكرام الذين خرجوا من تلك البوتقة الطاهرة ذهباً ابريزاً وكانوا من أجمل أدوات الإبداع فأبانوا فى كل مواقفهم عن عقول مثقفة ونفوس شريفة و بعد نظر فى ادارة الشعوب والممالك .



الادارة الاســـلامية

نظر فى الموضـــوع

كثيراً ما حاول بعض الباحثين فى شؤون الأسلام على عهده الأول أن يصوروا العرب فى غير صورتهم ذهاباً مع أهواء النفوس ، وان يستنتجوا استنتاجات ناقصة فى أحكامهم على الرسول عليه الصلاة والسلام ويغضوا من بعض أصحابه وينحوا انحاء شـديداً على المدنية الأسلامية زاعمين أن العرب حتى فى الإسـلام لم يعملوا عملاً يذكر فى باب التمدين وأنهم مقلدون فى جميع أعمـالهم ما زادوا على ما تعلموه من الروم والفرس من أسـاليب الحضارة . ولو صح ما قالوا لـكانت قوانين فارس والروم صالحة للبقاء وافية بالغرض ، ولمـا استطاع العرب أن ينزعوا سلطان تينك الأمتين العظيمتين عن أجمل أصقاع الأرض ويحكموها وينظموها على مثال مبتكر لم تكد تشهد البلاد مثله .

وسنثبت فى سلسلة هذه المحـاضرات فى الإدارة الإسلامية على عهد التفوق أن الأسلام ابتكر وأبدع فى الحرب والإدارة والسياسة كما اخترع وأبدع فى العلم والتشريع وأسباب المدنية على نحو ما يتجلى فى صفحات التاريخ الأسلامى ، ونأتى بالبراهين التى لا يسع منصفاً عارفاً انـكارها . ونكتفى الآن بأن نقول إن من أهم المعجزات المحمدية بعد القرآن هذه الطبقة العالية من الصحابة الكرام الذين خرجوا من تلك البوتقة الطاهرة ذهباً ابريزاً وكانوا من أجمل أدوات الإبداع فأبانوا فى كل مواقفهم عن عقول مثقفة ونفوس شريفة وبعد نظر فى ادارة الشعوب والممالك .

ولقد قضى هذا الضعيف الواقف بينكم زمناً طويلاً يتأمل ما كتب فى تراجم الصحابة وتاريخ أعمالهم وتعليلها وحلها فما رأى، عَلِمَ الله، بعد طول النظر واستعمال العقل النقاد الا ما يعجب منه . واذا كانت هناك بعض هنات قليلة نسبت لبعضهم فإنها ناشئة من خطإ فى الاجتهاد . ومن الميسور أن يجاب عنها لان الصحابة كانوا بشراً أيضاً ، وحب الدنيا قد لا يخلو منه أمثل الناس أخلاقاً . بيد ان التربية التى ورثها الصحابة من الشارع الأعظم قد هيأتهم لممارسة الأعمال العظيمة ، لما أخرجهم بهديه من الظلمات إلى النور ، فكانوا عظاماً فى كل مظاهرهم حتى أدهشوا الأمم بجميل صنعهم، وانشأوا فى نحو مائة سنة مملكة عظيمة لم يسبق لأمة قبلهم أن دانتهم فى مثل ما تم على أيديهم .

أو كان يقوم كل هذا لولا ان الصحابة كانوا على استعداد فطرى تام لتلقى فضائل صاحب هـذا الوحى العظيم فساروا بسيرته وعملوا بشريعته فى كل أرض وطئتها أقدامهم وارتفعت على ربوعها أعلامهم . ان ما نقله العرب عن غيرهم من تراتيب الممالك معروف ومعترف به ، والإنصاف يقضى أن يسجل لهم قسطهم من الأعمال المنبعثة مباشرة من قرائحهم المزينة بأخلاق عالية ما عهد فيما نظن مثلها كثيراً فى الأمم السالفة ولا الخالفة .

وها نحن أولاء نبدأ الليلة فى الكلام على الإدارة فى عهد الرسول وعمدتنا فيما نقتبس كتب الثقات والأمهات المعتبرة، وخطتنا أن نتحامى الاستنتاج بالمقياس الواسع إذا كانت الوثائق التى لدينا غير كافية . ومن الصعب على من يتوخى العدل أن يحكم على الشبهة ويجسم الصغير ، و إذا فعل يكون الحق فى واد وهو فى واد آخر . وهذا مما لا يليق بباحث غرضه الوصول إلى النور و إيصاله إلى من يهمهم أن يستصبحوا به فى موضوعات يشق على كل انسان خوض عبابها .

ادارة الرســـــول

دعا الرسول الى الإسلام لأول مبعثه ثلاث سنين سراً ، ولما اضطهد المشركون من قريش أصحابه أرادهم على التفرق فى البـلاد ، وأشار اليهم بالهجرة مع نسائهم إلى أرض الحبشة ، علماً منه بأن صاحبها يحسن جوارهم ولا يظلمهم ويعنتهم ، ثم دعا المسلمين الى المهاجرة الثانية فراراً بدينهم من أذى قريش الذين اشتدوا عليهم ، ومن جملة هذا الأذى انهم كانوا يلْبسون المستضعفين من المؤمنين برسالة الرسول أدراع الحديد ثم يصهرونهم فى الشمس ، فبلغ منهم الجهـد ماشاء الله أن يبلغ من حرّ الحديد والشمس . وكانوا يلصقون ظهر بعضهم بالرّضف [1] حتى ذهب لحم متنه . وعن ابن عباس « والله إن كان المشركون ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى مايقدر على أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة وحتى يقولوا له آللات والعُزّى إلهك من دون الله فيقول نعم » . فكان الأمر بالهجرة أولا وثانياً أول تدبير إدارى من الرسول ، أنقـذ به أصحابه من عَنَت المشركين ، ريثما تستحكم قواه فيعود على أعدائه يعرفهم أقدارهم، ويناقشهم أوزارهم .

وصححوا حديث «لاهجرة بعد الفتح» وقالوا إن الهجرة [2] كانت واجبة فى أول الاسلام على ما دل عليها الحديث ، ثم صارت مندوباً اليها غير مفروضة ، وذلك قوله تعالى : (ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مُراغماً [3] كثيراً وسعة) نزلت حين اشتد أذى المشركين على المسلمين عند انتقال رسول الله الى المدينة ، وأُمروا

---

(١) الرضف الحجارة المحماة (٢) الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار للحازمى (٣) مهاجراً

بالانتقال الى حضرته ليكونوا معه ، فيتعاونوا و يتظاهروا ان حَزَبَهم أمر ، وليتعلموا من أمر دينهم و يتفقهوا فيه ، وكان أعظم الخوف فى ذلك الزمان من قريش وهم أهل مكة ، وكان جميع من لحق بأرض الحبشة من المسلمين سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً أو ولدوا بها نيفاً وثمانين رجلا وثمان عشرة امرأة. وقال الرسول: أنا برىء من كل مسلم مع مشرك قيل لِمَ يارسول الله؟ قال : لاترائى ناراهما، أى يلزم المسلم و يجب عليه أن يباعد منزله عن منزل المشرك ، ولا ينزل بالموضع الذى أوقدت فيه ناره تلوح وتظهر لنار المشرك اذا أوقدها فى منزله ولكن ينزل مع المسلمين فى دارهم . وانما كره مجاورة المشركين لأنهم لاعهد لهم ولا أمان وحث المسلمين على الهجرة .

ولما ظهر الاسلام على الشرك طفق الرسول يدعو الى دينه جهرة وأخذ يرسل أمثل من دخلوا فى الاسلام من الرجال لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم . واذا وفد عليه وافد يعهد اليه أن يعلم قومه دينهم و« إمام كل قبيلة منها لنفور طباع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها » وإذا كان الوافد من رؤوس قبيله يُوَسِّد اليه جباية الفىء و يأمره أن يبشر الناس بالخير و يعلمهم القرآن و يفقههم فى الدين ، و يوصيه أن يلين للناس فى الحق ، و يشتد عليهم فى الظلم ، وأن ينهاهم إذا كان بين الناس هَيْج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له ، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين فى الصدقة ، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن[1] عنها . و بعث معاذاً إلى اليمن[2] وقال له: إنك تَقْدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم اليه عبادة الله تعالى فإذا عرفوا الله

---

(١) فتن الرجل فى دينه مال عنه (٢) تيسير الوصول لابن الديبع

تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتَوَقّ كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها و بين الله حجاب . وكتب الى عمرو بن حريث عامله على نجران كتابا فى الفرائض والسنن والصدقات والديات . واكتفى الرسول باخذ الجزية من أهل نجران وأيْلة وهم نصارى من العرب ، ومن أهل دُومة الجندل وهم نصارى وأكثرهم عرب .[1] وبلغ أُناساً من المشركين ممن لم يكن لهم عهد ولم يوافوا الموسم ، أن رسول الله أمَر بقتال المشركين ممن لا عهد لهم فقدموا على الرسول ليجددوا حلفا فلم يصالحهم الرسول إلا على الاسلام واقام الصلاة وايتاءِ الزكاة فأبوا فخلى سبيلهم حتى بلغوا مأمنهم ، وكانوا نصارى من قيس بن ثعلبة فلحقوا باليمامة ، حتى أسلم الناس ، فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على نصرانيته .

ولما كان الهدف الأسمى نزعَ الشرك من نفوس العرب أولا ، رأينا الشارع إلى الرفق بأهل الكتاب لا يباديهم الشر إلا إذا قاوموه . وقد أحسن معاملة نصارى نجران ، وفدوا عليه ستين راكباً فيهم العاقب أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذى يصدرون عن رأيه وأمره ، وفيه ثِمالهم وصاحب رَحْلهم ومعهم أُسْقُفُّهم وحبرهم و إمامهم وصاحب مِدْراسهم[2] فعاهدوه على أداء الجزية . وقال الرسول : من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة. وقال : من قتل قتيلاً من أهل الذمة لم يَرَحْ رائحة الجنة. وقال: من قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشَمَّها . وجعل دية المعاهد كدية المسلم[3] الف دينار، وعن مالك بن الوليد قال : أوصانى الرسول

---

(١) أقضية رسول الله للقرطبي (٢) العاقب الذى يخلف السيد وهو ثانيه فى الرتبة ومنه جاء السيد والعاقب والثمال الغياث الذى يقوم بأمر قومه والمدراس البيت الذى يدرسون فيه (٣) كتاب الديات للضحاك الشيبانى

أن لا أخطو إلى إمارة خطوة ، ولا أصيب من معاهد إبرة فما فوقها ، ولا أبغى على إمام بالسوء .

ولم يحارب الرسول اليهود فى خيبر وغيرها إلا لأنهم خانوا عهده وأرادوا قتله وكشفوا ستر سيدة من الأنصار . ويهود بنى النضير[١] وبنى وائل هم الذين حزّبوا الأحزاب عليه ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حربه ، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله فقطع نخل بنى النضير ثم صالحهم وحرّق على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أوطانهم ، ويسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء على أن لهم ما أقلّت الإبل إلا الحلقة[٢] ، وطاوله يهود خيبر وما كسوه[٣] ثم صالحوه على حقن دمائهم وترك الذرية ، على أن يُجلوا ويخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزّة إلا ما كان منها على الأجساد ، وأن لا يكتموه شيئاً ، ثم قالوا للرسول إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علماً فأقرنا فأقرهم . وفى بنى النضير نزلت سورة الحشر . وأبيد بنو قريظة لنقضهم العهد ومظاهرتهم المشركين على الرسول . فأمر بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم واستفاءة[٤] أموالهم .

ووضع الرسول على المسلمين وغيرهم وعلى الأرضين والثمار والماشية أموالاً بيّن الكتاب العزيز أصنافها فى عِدة آيات وبيّن حكم انفاقها فقال : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دُولة[٥] بين الاغنياء منكم) (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (يسألونك عن

---

(١) سيرة ابن هشام (٢) الدرع وقيل السلاح كله (٣) ما كسوه شاكسوه والمماكسة المشاحة وطلب الحط من الثمن (٤) استفاء المال أخذه فيئاً والفىء الغنيمة (٥) الدولة فى المال أن يتداوله الأغنياء فيكون مرة لهذا و مرة لذاك

الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .

فالفىء خراج يؤخذ من أرض العنوة [١] والخراج ما يؤخذ من أرض الصلح [٢] ومما افتتح عنوة وأكثر أهله عليه ، والجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والعشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التى أسلم أهلها عليها كأرض العرب وما أسلم عليه أهله أو فتح عنوة وقسم بين الغزاة . وما كانت الجزية تقبل من غير الكتابيين فى الأرض العربية ، [٣] ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام إلا الاسلام . ومن الأرض ما صولح أهله على النصف من ثمارهم كأهل فَدَك ، وجعل النبى فدك له خاصة ، لأنه لم يوجف [٤] عليها المسلمون بخيل ولا ركاب . والأنفال الغنائم فى القتال ، والصدقة أنواع هى الزكاة وهى عشر الغلات التى تأتى من الأرض التى خلت من سكانها أو كانت مواتاً فأحيوها ، وصدقات الماشية هى زكاة السوائم من الابل والبقر والغنم دون العوامل والمعلولة والصدقات عروض التجارة . قال ابن حبيب: [٥] أول ما بعث الله نبيه بالدعوة بعثه بغير قتال ولا جزية ، فأقام على ذلك عشر سنين بمكة بعد نبوته يؤمر بالكف عنهم ثم أنزل الله عليه : (أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا) الآية ، وأمره بقتال من قاتله والكف عمن لم يقاتله وقال الله عز وجل : (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السّلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) ثم نزلت براءة لثمان سنين من الهجرة فأمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب من قاتله أو

---

(١) العنوة القهر وفتح البلد عنوة أى قسراً (٢) مفاتيح العلوم للخوارزمى (٣) الخراج لابى يوسف (٤) أوجف الفرس أعداه والمراد تجهيز جيش لفتح البلد (٥) تيسير الوصول لابن الديبع

كف عنه إلا من عاهده ولم ينتقض من عهده شيئا فقال : (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم أن الله غفور رحيم) . وكل ذلك كان يؤخذ ممن اهتدوا إلى الدين الجديد ومن بقوا على دينهم من اليهود والنصارى بعدل لا شطط فيه يدفعه المسلمون والمعاهدون طيبة نفوسهم ولم يتبرم به أحد . [١]

شكا يهود خيبر [٢] — « وكانت قرية الحجاز ريفا ومنعَةً ورجالا » وكان فيها عشرون ألف مقاتل [٣] — عبد الله بن رَوَاحة . وكان الرسول يبعثه كل عام يخرُص [٤] عليهم تمرهم ثم يقول : إن شئتم فلكم وإن شئتم فلى ، فكانوا يضمنونه فشكوا إلى الرسول شدة خرصه [٥] وأرادوا أن يرشوه جللوا له حلياً من حليّ نسائهم فقالوا : هذا لك وخفف عنا وتجاوز فى القسم . فقال عبد الله : يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى الىّ وما ذاك بحاملى على ان أحيف عليكم وأما ما عرضتم علىّ من الرّشوة فانها السحت وإنا لا نأكلها . فقالوا : بهذا قامت السموات [٦] والأرض .

ولقد كان الرسول يتخير عماله من صالحى أهله وأولى دينه وأولى علمه ، ويختارهم على الأغلب من المنظور اليهم فى العرب ليوقروا فى الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، يحسنون العمل فيما يتولون ويُنشر من قلوب من ينزلون عليهم الإيمان ، ويكشف أبداً عملهم أى يفتشهم ، ويسمع ما ينقل اليه من أخبارهم . وقد عزل العلاء بن الحضرمى عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس شكاه وولى أبان بن سعيد وقال له : استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراتهم [٧]

---

(١) العشر والخراج فى الخلافة العربية لمصطفى الشهابى (مجلة المجمع العلمى العربى م ١٢)
(٢) المعارف لابن قتيبة (٣) الخراج لأبى يوسف (٤) يقدر (٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦) تيسير الوصول لابن الديبع (٧) طبقات ابن سعد

وكان يستوفى الحساب على العمال[١] يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وقد استعمل مرة رجلاً على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال : هذا لكم وهذا اهدى إليّ . فقال النبى : ما بالُ الرجل نستعمله على العمل بما ولاّنا الله فيقول : هذا لكم وهذا اهدى إليّ، أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر أيُهدى اليه أم لا . وقال : من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو علول[٢] .

وما انفك الرسول من استشارة أهل الرأى والبصيرة ومن شُهد لهم بالعقل والفضل ، وأبانوا عن قوة إيمان ، وتفان فى بث دعوة الاسلام . وهم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حمزة وجعفر وابو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وسليمان وعمار وحذيفة وابو ذر والمقداد و بلال . وسموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول إسلام قومهم ، والنقيب الضمين . وكان له عرفاء أى رؤساء جند . ويكتب له بعض جلة الصحابة من الكَمَلة ،[٣] والكملة فى الجاهلية وأول الاسلام هم الذين كانوا يكتبون بالعربية ويحسنون العوم والرمى .

كان كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح عليّ بن أبى طالب . وممن كتب له أبو بكر وعمر وعثمان والزبير ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص وحنظلة الأسَيْدى والعلاء بن الحضرمى وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبدالله بن أبى سلول والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان يكتب فيما بينه و بين العرب وجُهَيْم بن الصلت وشرَحبيل بن حَسَنة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، و بلغ كتاب الرسول اثنين وأربعين رجلاً وكان صاحب سره حذيفة بن اليمان . وكان الحارث بن عوف المرى على خاتمه ، وخاتمه من حديد ملون عليه فضة نقش ثلاثة أسطر محمد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر . ويضع خاتمه أيضاً

---

(١) الحسبة فى الاسلام لابن تيمية (٢) حياة (٣) طبقات ابن سعد

عند حنظلة بن الربيع بن صيفى بن أخى أكثم ، ويكون خليفة كل كاتب من كتاب النبي غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب ، وكان معيقيب بن أبي فاطمة يكتب مغانم الرسول ، وكذلك كعب بن عمرو بن زيد الانصارى كان يقال له صاحب المغانم ، وحذيفة بن اليمان يكتب خرص تمر الحجاز ، والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس فى قبائلهم ومياههم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان عبد الله بن الأرقم يجيب الملوك عن الرسول ، والزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات ، والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات،وشرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى الملوك . ومن شعرائه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك انتدبهم لهجو المشركين ، وخطيبه ثابت بن قيس . وكان زيد بن ثابت ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية . وناجية الطفاوى ونافع بن ظريب النوفلى يكتبان المصاحف وشفاء أم سليمان بن أبي حثمة تعلم النساء الكتابة وعبادة بن الصامت يعلم أهل الصفة القرآن ، وكانت دار مخرمة بن نوفل بالمدينة تدعى دار القرآن . وأول قاضٍ فى المدينة عبد الله بن نوفل ومقرىء المدينة مصعب بن الزبير وأول لواء عقد فى الإسلام لواء عبد الله بن جحش ، وعقد لسعد بن مالك الأزدى راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض وكان لواؤه أبيض أو أصفر أو أغبر وله راية تدعى العقاب من صوف أسود مكتوب على رايته : لا اله إلا الله محمد رسول الله . وأول مغنم قسم فى الإسلام مغنم عبد الله بن جحش . ومن عماله أبو دجانة الساعدى وسباع بن عرفطة عاملاه على المدينة ، وكان ثلاثة أرباع عماله من بنى أمية لأنه إنما طلب للأعمال [1] أهل الجزاء من المسلمين والغناء ، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها كما قال معاوية . واستعمل الرسول أبا سفيان بن

---

(١) تاريخ الطبرى

حرب على نجران مولاه الصلاة والحرب ، ووجه راشد بن عبد الله أميراً على القضاء والمظالم .

وكان الرسول كثيراً مايقول أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبيّ بن كعب ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبوعبيدة بن الجراح . وقال : خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود وأُبَيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وجمع القرآن أى حفظه جميعه من الأنصار أُبيٌّ ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو قيس بن السكن ، هؤلاء أهم رجال الادارة والقضاء والفقه والقرآن . وهناك طبقة أخرى تتولى الأعمال مثل عتّاب ابن أسيد الذى استعمله والياً على مكة ، ورزقه كل يوم درهما فقام يخطب ويقول : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم فقد رزقى رسول الله درهما كل يوم ، فليست بى حاجة الى أحد . وهذا الراتب من أول ما وضع من الرواتب للعمال . وقد يكون رزقهم ما يطعمون منه على نحو ما أجرى على قيس بن مالك الأرحبى من همذان لما استعمله على قومه عربهم وحمورهم[1] ومواليهم فأقطعه من ذرة نسار مائتى صاع ومن زبيب خَيْوان[2] مائتى صاع جارٍ له ذلك ولعقبه من بعده أبداً أبداً أبداً . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون ما يتبلغون به من الغنائم وغيرها ، ومنهم من كان غنياً فى الجاهلية والاسلام فجهز من ماله جنداً فى سبيل الله ، بل منهم من أنفق كل ماله فى هذا الغرض وهو راض مغتبط .

ولقد آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار بأخوة الاسلام والايمان ولطالما أقطع القطائع[3] ، وكان يتألف على الاسلام ، ويعطى من الصدقات من يريد

---

(١) لعل صوابه حمرها جمع احمر اى الأعاجم (٢) مخلاف فى اليمن والنسار جبل فى حمى ضرية
(٣) القطيعة من الأرض طائفة من ارض الخراج

تأليف قلوبهم ، فدعى من يأخذون ذلك « المؤلفة قلوبهم » وهم أحد وثلاثون رجلا من سادة العرب ، تألفهم وتألف بهم قومهم ، ليرغبوهم فى الاسلام ، ولئلا[١] تحملهم الحمية مع ضعف نياتهم على أن يكونوا إلباً مع الكفار على المسلمين ، وما منهم الا الشريف المسوّد والعالم والخطيب والشاعر والداهية الباقعة ، وكل منهم سيد فى قومه مطاع فيهم ، قال صفوان بن امية : لقد أعطانى رسول الله يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلىّ ، فما زال يعطينى حتى إنه لمن أحب الناس إلىّ . وقال الرسول : إنى لأعطى قوماً أتألف ظلعهم[٢] وجزعهم وأكل قوماً إلى ماجعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى . وكان يعامل المسلمين بقواعد المساواة التامة ، ويفضل مثلا من الأزد الأنصار وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن عامر وهم أعز الناس نفساً وأشرفهم ، وهم لم يؤدوا أتاوة قط إلى أحد من الملوك

كانت الحكمة فى تأليف من قضت المصلحة بتأليفهم ، وأعطى كل واحد من المؤلفة قلوبهم فى احدى غزواته مئة من الإبل ومقداراً من الفضة ، فلما دخل الناس فى الدين أفواجاً ، وظهر المسلمون على جميع أهل الملل بطل العطاء للمؤلفة قلوبهم ، ودخل بعضهم فى خدمة الدولة وتولوا العمالات وقيادة الجيوش ، ولم يبق عربى بعد واقعة حنين والطائف[٣] الا أسلم ، ومنهم من قدم على الرسول ومنهم من لم يقدم ، وقنع بما أتاه به وأفد قومه من الدين . ولما فتحت مكة دانت العرب لقريش وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته ، فدخلوا فى دينه وقلّ أن دخل فيه إلا من اعتقد صدق صاحبه ، وقد جاء قيس بن نُشبة السُّلَمى فأسلم ورجع إلى قومه فقال : يابنى سليم ، قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأسفار الرهبان والكهان ومقاول[٤] حمير ، وما كان كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم . وقال ابو سفيان

(١) تاج العروس للزبيدى (٢) الظلع العيب (٣) أسد الغابة لابن الأثير (٤) مفردها مقول وهو القيل ابن الملك الصغير بلغة اليمن

ابن حرب : مارأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً [١] .

وكثرت الوفود فى السنة التاسعة للهجرة حتى سمى عام الوفود ، وبعث رسله الى ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام، وفى سنة سبع بعث دحية الكلبى بكتاب الى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى الى هرقل ليدفعه الى قيصر ، وبعث عبد الله بن حذافة السَّهمى الى كسرى ، وعمرو بن أمية الى النجاشى وحاطب بن أبى بلتعة الى المقوقس ملك الاسكندرية والعلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى ملك البحرين وشجاع بن وهب الأسدى الى الحرث بن أبى شمر الغسانى ، والمهاجر بن أبى أمية الى الحرث ملك اليمن . وجاءت وفود العرب من كل وجه ، وكان الرسول يكرمهم ويفضل عليهم بعطائه ، ومنهم من يضيفه عشرة أيام كوفد عبد القيس ، ومنهم من يبالغ فى إكرامه كملوك اليمن ، وإنما سموا ملوكاً [٢] لانه كان لكل واحد منهم واد يملكه بما فيه . وكانت كتبه الى ملوك الأطراف خارج الجزيرة بلغة مضر وفصيح ألفاظها وكلها موجزة ، واستعمل ألفاظا فى بعض كتبه الى أهل اليمن وغيرهم غير معروفة للعرب كافة إلا فى قبيل واحد ، وذلك إرادة إفهام القوم ومخاطبتهم بمألوفهم من العبارات [٣] . قال عليٌّ للرسول وقد سمعه يخاطب وفد بنى نهد : يارسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بمالا نفهم أكثره . فقال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وربيت فى بنى سعد . فكان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمون .

ولم يكن للرسول بيت مال ، وكان يخبأ الأموال فى بيته وبيوت أصحابه ، وفى الغالب أن الفىء يقسم من يومه ، خصوصاإذا كان من الناطق كالابل والشياه والخيل والبغال . والرسول يعطى الآهل [٤] من الفىء حظين والعزب حظاً [٥] .

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٢) طبقات ابن سعد (٣) العقد الفريد لابن عبد ربه — كتاب الجمانة فى الوفود (٤) الآهل المزوج (٥) تيسير الوصول لابن الديبع

وما كانت تأخذه بالمشركين هوادة لاسيما بعد أن فتحت مكة ، وأطاعت الحجاز واليمن واليمامة وغيرها من أصقاع الجزيرة ، وما كان هوى من رسخ الاسلام فى قلوبهم فى شىء من حطام الدنيا ، فقد بلغ من تبادل الثقة [١] والحب بين المسلمين فى صدر الاسلام أنهم كانوا خلطاء بالمال ، يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . ولقد أهديت لعبادة ابن الصامت [٢] هدية وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته فقال عبادة : اذهبوا بهذه الى آل فلان فهو أحوج اليها منا . قال الوليد بن عبادة فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها الى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية الى عبادة قبل الصبح . وأسلف عبد الله بن جعفر الزبير ابن العوام الف الف درهم فلما قتل الزبير قال ابنه عبد الله لعبد الله بن جعفر إنى وجدت فى كتب أبى أن له عليك الف الف درهم فقال : هو صادق فاقبضها إذا شئت ثم لقيه فقال : يا أبا جعفر وهمتُ المال لك عليه فهو له قال : لا أريد ذاك . قال : فاختر ان شئت فهو له وإن كرهت ذلك فله فيه نظيره ما شئت ، وإن لم ترد ذلك فبعنى من ماله ماشئت .

مثال آخر من هذا الإيثار . كان بالمدينة فى زمن النبى شاب يقال له مالك بن ثعلبة الأنصارى ولم يكن بالمدينة شاب أغنى منه ، فمرّ بالنبى والنبى يتلو هذه الآية (والذين يكنزون الى قوله فذوقوا ما كنتم تكنزون) فغشى على الشاب فلما أفاق دخل على النبى فقال : بأبى أنت وأمى هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة . فقال له النبى : نعم يامالك . قال : والذى بعثك بالحق ليمسين مالك ولايملك دينارا ولا درهماً . قال : فتصدق بماله كله . وما كان أصحاب رسول الله بالمنخرقين [٣]

---

(١) الاحياء للغزالى (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣) المحرق السريع

ولا المتماوتين [١] يتناشدون الأشعار ، ويجلسون في مجالسهم ، ويذكرون جاهليتهم فإن أريد إنسان منهم على شيء من أمر دينه دارت عيناه فترى حماليقها [٢] غضباً . بل كان منهم من إذا ارتكب كبيرة يعاقب عليها الاسلام يأتي الرسول يطلب إقامة الحد الشرعي عليه ، أو يسمع منه ماينقلب به الى أهله مسروراً ، يأخذ حكمة تثلج بها نفسه ، ويعتقد أنه تحلل من ذنبه واستغفر له الرسول .

وأراد النبي مرة إحصاء المسلمين فقال : اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس ، فكتبوا له ألفاً وخمسمائة رجل . وما كان يجمع المسلمين في أول أمرهم كتاب حافظ أي ديوان مكتوب [٣] وكان إذا نودي للزحف وتخلف عنه أحدهم لعذر أو شبه عذر ، يلومه الرسول وأصحابه ، وإذا تبين أنه تعمد أن يكون مع المتخلفين عن القتال يعاتَبُ ، ويقاطعه الجماعة ويجتنبونه لا يكلمه أحد . ولما أمر الرسول بالتهيوء لغزو الروم في اليرموك ، تثاقل المسلمون عنها وأعظموا غزوهم ، فنافق من نافق من المنافقين ، حين دعوا إلى ما دعوا إليه من الجهاد ، وكان « ذلك في زمن عسرة [٤] من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه » وجاء المتخلفون عن هذه الغزاة وكانوا ثمانين رجلاً فقبل الرسول منهم علانيتهم وأيمانهم ، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله . وفي هذه الغزوة حضَّ الرسول أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وكان من أفضل القربات أن يجهز أرباب اليسار أناسا للغزو يتكفلون بطعامهم وإطعام ذويهم ، ويُعطونهم السلاح والكُراع واللباس ليَغزُوا

---

(١) تماوت أظهر من نفسه التماوت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم (٢) الحملاق باطن الاجفان المحمر اذا قلبت للكحل بدت حمرتها وقيل الحملاق ماغطى الجفن من بياض المقلة (٣) سيرة ابن هشام (٤) سيرة ابن هشام

ويرابطوا[١] . وكان المسلمون كلهم جنداً يقاتلون للدين وكان لا يزال فيهم أبداً من يبذل شطراً صالحاً من ماله فى وجوه البر والقرب لا يريدون على إسلامهم ونصرهم للرسول جزاء . وجميع ما غزا الرسول بنفسه سبع وعشرون غزوة وكانت بعوثه وسراياه ثمانياً وثلاثين بين بعث وسرية ، وكان يورِّى بغزواته ، وقلَّ أن يعين لأصحابه الوجهة التى يقصدها فى غزاته ، وكتب مرة لأحدهم كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا . ولا يستكره من أصحابه أحداً أى يندبهم للعمل قسراً ، وذلك ليترصد بذلك قريشاً ويعلم له من أخبارهم .

ولم يكن للمسلمين سلاح جاهز . وسلاحهم القوس والنبل والحربة والسيف والدرع ثم اتخذ انواع السلاح التى كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم . واستعار الرسول يوم هوَازن[٢] مئة درع بما يكفيها من السلاح من صفوان بن أمية ليلقى بها العدو على أن تكون عارية مضمونة حتى يؤديها اليه . ورأى الرسول أن اتساع الفتوح يقضى بأن يتعلم بعض أصحابه صنعة الدبابات والمجانيق والضبور[٣] أى صنائع القتال فأرسل إلى جُرَش اليمن اثنين من أصحابه يتعلمانها . وكان أهل الطائف أول من رُمى بالمنجنيق . وأخذ المسلمون بَعْدَ ذلك يعدون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، لأنهم قادمون على فتح الشام والعراق على ما بشرهم به الرسول فقال لعدى بن حاتم : لعلك يا عديّ إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذ ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت

---

(١) المرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم فى ثغره وكل مستعد لقرنه فسموا مرابطين أى يقيمون على جهاد عدوهم بالحرب ومرابطات المسلمين مواضع حيث المرابطة ، والرابطة هم الجماعة رابطوا (٢) سيرة ابن هشام (٣) الضبور جلود تغشى خشباً فيها رجال ، قالوا هى كالدبابات تقرب للحصون لتنقب من تحتها الواحدة ضبرة .

لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . وقال مرة : أبشروا وأمّلوا ما يسركم فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها فتهلككم كما أهلكتهم .

رأينا الرسول فى طور ضعفه ، ثم فى طور قوته ، يحرص على رجاله حرصه على أعز شىء لديه . ولما دخل عمر فى الإسلام اعتزّ به وترك به المسلمون التقية فى دينهم، بل إنه كان إذا سقط فى يده أحد أذكياء المشركين أبقى عليه ، مهما كان من إيذائه للمسلمين أو له خاصة ، علّ فى حياته ما يستفيد منه الإسلام إذا أسلم . أما من قتلوا النفس التى حرم الله فهؤلاء لا تأخذه بهم رحمة؛ قدم عليه نفر (١) من العرب قد ماتوا هزالا فأسلموا واحتووا المدينة فأمرهم الرسول أن يأتوا إبل الصدقة يشربوا من ألبانها ففعلوا وصحوا وسمنوا فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الابل فبعث فى آثارهم فما ترجل (٢) النهار حتى جىء بهم وأوقع عليهم أشد العقوبة الشرعية .

وكان يحسن معاملة النساء عامة كما يحسن معاملة أزواجه خاصة فيؤثّرن أى تأثير فى الرجال ، ويجعل منهن أدوات صالحة له يبث بواسطتهن دعوته ، ويرعى مصالح المسلمين ، وقد أوصى بهن أجمل وصاة فى خطبته يوم حجة الوداع . وهذا غاية فى حسن الإدارة والسياسة لأن حل المسائل بدون مشاكل ، أنفع من حلها بطرق جافة . والنساء فى هذا المعنى من أفعل أسباب الدعوة ، خصوصاً إذا كن كالصحابيات يأخذن بمجامع القلوب بجميل عاطفتهن وجمال بلاغتهن . وكان يسمح باستخدام النساء فى حروبه وغزواته يخدمن الجرحى ويأخذن من العطاء ويتولين من الرجال مايصلحن له كالطعام والاسقاء ، ويحمسن من يحتاج الى تحميس

---

(١) أقضية رسول الله للقرطبى (٢) ترجلت الشمس ارتفعت واحتووا استوبأوا

وجعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة يقال لها رفيدة فى مسجده كانت تداوى الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه ضيعة من المسلمين . وكذلك كانت أخت رفيدة واسمها كعبة بنت سعيد الأسلمية . ومنهن من كنّ يخطن القرب . فالنساء فى حكومته ممرضات طاهيات ساقيات خياطات محمسات داعيات . وأمر الرسول أن لا يقتل النساء فى الحرب . فكان بذلك يستفيد من كل قوة فى بلده يستعين بها على الظهور على المشركين .

ومن خطبه الادارية ما ورد فى الثقات أنه قعد على بعير له وأخذ إنسان بخطامه أو بزمامه فقال : أى يوم هذا . قال من حضر : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى . قال: فأى شهر هذا . قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس بذى الحجة . قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا . قال : فأمسكنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس بالبلد الحرام . قلنا : بلى . قال : فان دماءكم وأعراضكم (وفى رواية وأموالكم) بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا ليبلغ الشاهد الغائب .

هذا جملة ما يقال فى تدبير الرسول فى الإدارة من بث دعوة ، وجهاد عدو ، وأخذ غنائم وصدقات وجزى وعشور ، وقسمتها بين المجاهدين وأهل البلاء من المهاجرين والأنصار ، ثم على فقراء المسلمين ، وما كان من توزيعه العمل بين عماله ومعاملته لهم وللوفود والنساء الى غير ذلك من أسباب القوة واتخاذ الجند والمحاربين ، واشتداده فى الحق ولينه إذا دعت الحال الى اللين ، واغضائه أحياناً لما يلحق به من الأذى ، يرتقب الفرص لمن يكيد للمسلمين .

ومما يصح التمثل به فى باب اللين أنه رضى يوم الحديبية أن يدخل وأصحابه مكة ثلاثة أيام فقط على أن يكونوا بجلبان[1] السلاح وصالح سهيلا بن عمرو أخا بنى

---

(١) الجلبان اوعية السلاح بما فيها الغمد والسيف فيه والكنانة والسهام فيها

عامر بن لؤى فدعا عليا بن أبى طالب . فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلا بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن أكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله : أكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيلا بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال [1] وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه الخ . فاستاء المسلمون من هذا العهد بعد أن فازوا على أعدائهم ؛ وأحب الرسول حقن الدماء فقبل من خصمه هذا العنت ، وكانت العاقبة له ولقومه .

ادارة الخلفاء الراشدين

سار أبو بكر بسيرة الرسول فى الإدارة الاسلامية واحتفظ بالعمال الذين استعملهم صاحب الشريعة ، والأمراء الذين أمرهم ، ومن العمال من أبى أن يعمل لغير رسول الله فاعتزل العمل ولما وسدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة : أنا أكفيك المال . وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان ، ولم يخاصم إليه أحد . وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور الإسلام يرون من الطبيعى أن يعطى الإنسان الحق ويأخذ الحق ، ويقف عند حدود الله

(١) الاسلال الخيانة والاغلال السرقة . والعيبة في الرجل موضع سره اى بيننا وبينهم في هذا الصلح صدر معقود على الوفاء بما فى الكتاب نقى من الغل والغدر والخداع

لا يقارف منكراً ولا يسرف على نفسه ، ويبعد عن الزور وأ كل أموال الناس بالباطل ، ويجعل رائده الصدق فى أقواله وأفعاله .

كان إذا نزل بالصديق أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأى وأهل الفقه ، ودعا رجالاً من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتى فى خلافة أبى بكر ، وإنما تصير فتوى الناس إلى هؤلاء . على أن أبا بكر كان حدّ عالم بالشريعة وأخبار الناس وأيامهم وأنسابهم وسياساتهم ، إلى ما رزق من صدر رحب يطلب من كل صاحب إدارة . واختار من القضاة ما اختاره الولاة غالباً ، وكان ولاة المدينة[1] هم الذين يختارون القضاة ويولونهم ، ويكتب لأبى بكر على بن أبى طالب وزيد بن ثابت . ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان[2] ويكتب له من حضر[3] ومن عماله عتاب بن أسيد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى العاص والمهاجر بن أبى أمية وزياد بن عبيد الله الأنصارى ويعلى بن منية وأبو موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل والعلاء بن الحضرمى وجرير بن عبد الله وعبد الله بن ثور وعياض بن غَنْم وأبو عبيدة بن الجراح وشُرَحبيل بن حَسَنة ويزيد بن أبى سفيان وخالد بن الوليد .

ما تجاوزت رقعة الملك الأسلامى فى أيام أبى بكر أ كثر من جزيرة العرب قسمت إلى ولايات أو عمالات وهى مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت وحولان وزُبيد ورِمَع والجَنَد ونجران وجُرَش والبحرين ، أما القواد الآخذون بفتح الشام والعراق فيولون عمالاً من عندهم فى الأرض التى يفتحونها . بمعنى أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات ، واليمن إلى ثمان ، والبحرين وما اليها ولاية .

---

(١) طبقات ابن سعد (٢) تاريخ الطبرى (٣) الكامل لابن الأثير

ولما ولى أبو بكر قال: قد علم قومى أن حرفتى لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين فى مالهم وسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ، فجعلوا له ألفين وفى رواية ثلاثة دراهم كل يوم من بيت المال[١]. ثم قال: زيدونى فان لى عيالاً وقد شغلتمونى عن التجارة فزادوه خمسمائة . ولما مات ابنه فى خلافته ترك سبعة[٢] دنانير فاستكثرها أبو بكر. ولم يفرض أبو بكر ولا الرسول من قبل عطاء مقرراً للجند[٣] وكانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم ، واذا ورد المدينة مال من بعض البلاد أُحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم يصيب منه الأنصار والمهاجرون وكل مسلم بحسب غنائه فى نصرة الدين. جرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبى بكر . وكان لأبى بكر[٤] بيت مال بالسُّنْح من ضواحى المدينة إلى أن انتقل إلى المدينة فقيل له ألا تجعل عليه من يحرسه ، قالوا فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شىء . ولما قضى نحبه ذهب عمر فى نفر من الصحابة لاستلام بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً .

وجرى ابو بكر على كشف أحوال العمال ، وكان كصاحبه يختار أكثرهم علماً وعملاً . ولما عزل خالد بن سعيد أوصى به شرحبيل بن حسنة وكان أحد الأمراء فقال: انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرف لك من الحق عليه لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وأن رسول الله (ص) توفى وهو له والٍ ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له فى دينه ما أغبط أحداً بالامارة . وقد خيرته فى أمراء الأجناد فاختارك على غيرك ، اختارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقى الناصح ، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢) طبقات ابن سعد (٣) الفخرى لابن الطقطقى (٤) الكامل لابن الاثير

جبل ، وليكن خالد بن سعيد ثالثاً . فإنك واجد عندهم نصحاً وخيراً . وإياك واستبداد الرأى عنهم أو تطوى عنهم بعض الخبر .

وشغل أبو بكر بقتال أهل الردة فوطد دعائم الدولة باظهار قوة المسلمين لمن خالفهم ، فجمع الشمل الذى كان يخشى من انبتاته ، و بدا منه حزم عجيب وإدارة شديدة رشيدة ، وخالف جميع أصحابه فى قتال من أخلوا بشروط الاسلام فأصر على قتالهم . ولقد قال عمر إن العرب لما ارتدت[١] ومنعت شاتها و بعيرها أجمع رأينا كلنا أصحاب محمد أن قلنا لأبى بكر إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمده الله بهم ، وقد انقطع ذلك فالزم بيتك ومسجدك ، فانه لاطاقة لك بقتال العرب . فخالفهم كلهم أبو بكر وأعلن هذه الحرب على المرتدين حتى أذعنت العرب بالحق . استبد أبو بكر برأيه فكان رأيه الصواب ، وقضى بصادق عزيمته و بعيد نظره قضاء مبرماً على آخر أثر من آثار الوثنية فى الأرض العربية ، ولما أرسل الصديق الأمراء لقتال أهل الردة أوصاهم أن يقتصدوا بالمسلمين ، و يرفقوا بهم فى السير والمنزل ، و يتفقدوهم و يستوصوا بهم فى حسن الصحبة ولين القول ، وأمر قواده فى المرتدين أن لا يقاتلوا أحداً ولا يقتلوه حتى يدعوه إلى الله ، فمن استجاب لهم وأقرّ وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعين عليه ، ومن أبى يقاتل على ذلك ، ولا يبقون على أحد منهم قدروا عليه ، وأن يحرقوهم بالنار و يقتلوهم كل قتلة ، و يسبوا النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد إلا الاسلام .

ومن وصايا أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان لما أرسله إلى الشام « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه . واحترس من البيات فإن فى العرب غرة ، [٢] وأقلل من الكلام فإنما لك ما وعى عنك ، و إذا أتاك كتابى فانفذه

---

(١) الكامل للمبرد (٢) بيت العدو أوقع بهم ليلا من دون أن يعلموا والغرة الغفلة

فإنما أعمل على حسب إنفاذه . وإذا قدمت عليك وفود العجم فأنزلهم معظم عسكرك وأسبغ عليهم النفقة ، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا تلحنَّ فى عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن اليها وأنت تكتفى بغيرها ، واقبل من النـاس علانيتهم وَكِلهم إلى الله فى سرائرهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ولا تهمله فتفسده » .

ولم يحدث أبو بكر فى أيامه أحداثا جديدة ، والفتوح لم تقف مع حروب الردة ووجه وجهته نحو الشام وكان آخر جيش جهزه جيش اليرموك ، جهزه بكل حكمة وبذل فى تنظيمه أقصى الجهد ، وجعل فيه قاضياً وجعـل أبا سفيان بن حرب قاصاً يسير فى الجماعة ويقول : الله الله عبادَ الله انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبـادك ، يا نصر الله اقترب يا نصر الله اقترب . وقصاص الجند يقصون عليهم أخبـار الوقائع والفروسية ليقووا قلوبهم ، وقيل ان تميما الدارى كان أول من قص فى مسجد الرسول فى عهد عمر ، كان يذكر المسلمين بالله ويقص عليهم قصصاً وأحاديث عن الأمم الماضية وأساطير وحكايات .

* * *

كانت أول خطبـة خطبها عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة : أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ له الحق ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منـه ، وما كان عمر ممن أولع بإلقاء الخطب كثيراً على بلاغة فيه مستحكمة وعلم غزير ، ولا يرتقى المنبر إلا إذا قضت الضرورة وأراد بيان أمر ذهبت فيـه نزوات النفوس مذهباً لا يرضاه . وكثيراً ما قال إن هذا الأمر لا يصلح فيـه إلا اللين فى غير ضعف ، والقوى فى غير عنف . وكذلك كان عمر يجمع بين اللين والشدة ، وهو إلى هذه ولا سيما على عماله أقرب . وإذا كان أكبر رجال الادارة تحصى عليهم عشرات من الأغلاط فإن عمر لا يستطيع أكبر الناقدين أن

يحصى عليه غلطتين أو ثلاثا ، وقد يجاب عليها بأن ذلك محض اجتهاد منه ، والمجتهد قد يصيب ويخطىء . والحكم الآن على مسائل لم تتجل كل التجلى بما نقله الناقلون ، وما أحاط بها من أحوال دقيقة غير مرئية ، يدعونا إلى أن نمسك عن إرسال القول فى النقد ، ولا سيما نقد رجل عقمت أمم كثيرة أن تنبغ أفضل منه وأعظم .

وطريقة عمر فى الإدارة طريقة أبى بكر وصاحبه من قبل : اطلاق الحرية للعامل فى الشؤون الموضعية ، وتقييده فى المسائل العامة ، ومراقبته فى خلوته وجلوته . « وكان [1] علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد وعلى وساد واحد ، فلم يكن له فى قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحى عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده ، فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده فى كل مُمْسى ومُصْبَح . وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق اليه وأخصهم به » وكان كما قال المغيرة بن شعبة أفضل من أن يَخدع وأعقل من أن يُخدع .

كان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم [2] فيقول إنى لم استعملكم على امة محمد على أشعارهم ولا على أبشارهم وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، لا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها [3] فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم . وكان يقص من عماله ، وإذا شكى اليه عامل جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه . وكان إذا بعث أمراء الجيوش يوصيهم بتقوى الله وأن لا يعتدوا ولا يجبنوا عند اللقاء ولا يمثلوا عند

(١) التاج المنسوب للجاحظ (٢) تاريخ الطبرى (٣) لا تؤخروها فى دار الحرب

القدرة ولا يسرفوا عنـد الظهور ولا يقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً وأن يتوَقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند حمة النهضات وفى شن الغارات وان لا يغُلّوا عند الغنائم و ينزهوا الجهاد عن عرَض الدنيا .

وكان عمال عمر عرضة لكشف أحوالهم مهما بلغ من منزلتهم ، وكان إذا شُكى [١] إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، وله عدة طرق فى كشف سيرة عماله ، منها أن يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيئكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم ، فما قام إلارجل واحد فقال : إن عاملك فلاناً ضربنى مائة سوط ، قال فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سُنة يأخذ بها من بعدك . فقال : أنا [٢] لا أقيد . وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه قال : دونكم فارضوه ، فافتدى منه بمائتى دينار كل سوط بدينارين . وقال من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علىّ إلا أن يرفعها إلىّ حتى أقصه منه . وقيل له : أرأيت إن أدب أمير رجلاً من رعيته أتقصه منه فقال : ومالى لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه .

وكان يستدعى عماله ليطّلع على مطاوى نفوسهم ويكشف بنفسه إن كانوا أخذوا أنفسهم بأسباب النعيم لأن عمر يؤثر الخشونة [٣] ويريد عماله أن يتبعوه فى سائر أعماله وشيمه واخلاقه فكان كل يتشبه به من غاب أو حضر ، وهو يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رُزقها ، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٢) أقاد القاتل بالقتيل قتله به (٣) مروج الذهب للمسعودى

الأموال . وكان ينهى عماله عن جيد الملبوس والمركوب والمأكول ويلتف في [1] كسائه وينام في ناحيـة المسجد فلما وُرِد بالهرمزان صاحب تُستر عليـه ، جعلوا يسألون عنه فيقال مرّ ههنا آنفا فيصغر في قلب الهرمزان إذ رآه كبعض السُّوقة حتى انتهى اليه وهو نائم في ناحية المسجد فقال الهرمزان : هذا والله الملك الهنيء ، يقول لا يحتاج إلى حراس ولا عدد فلما جلس عمر امتلأ قلب العلج [2] منـه هيبة لما رأى عنده من الجد والاجتهاد وأُلبس من هيبة التقوى . قالوا وكان أبا العيال [3] يسلم على أبوابهن ويقول ألـكن حاجة وأيتكن تريد أن تشترى شيئا فيرسلوه معه بحوائجهن ومن ليس عنـدها شيء اشترى لها من عنـده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعه بنفسه في منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : أزواجكن في سبيل الله وأنتن في بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لـكن ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول : هـذه دواة وقرطاس فادنين من الأبواب حتى أكتب لـكن ويمر إلى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بهـا إلى أزواجهن .

وكان إذا استعمل عاملًا أوصاه بتقوى الله وإصلاح الرعية وكتب عليه كتابا وأشهد عليـه رهطا من الأنصار أن لا يركب بِرْذوناً ولا يأكل نقيًا ولا يلبس رقيقاً ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم اشهد . وكتب إلى عماله : أما بعـد فاياكم والهدايا فإنها من الرُّشا . اهتدى إلى عظيم ضرر الهدايا مما بدر من رجل [4] كان يهديه فخذ جزور فخاصم اليه رجلا فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاء فصلًا كما يفصل الرِّجل من سائر الجذور ، فقضى عليـه عمر ، ثم كتب إلى

---

(١) الكامل للمبرد (٢) العلج الرجل من كفار العجم والقوى الضخم منهم ج علوج وأعلاج
(٣) سراج الملوك للطرطوشى (٤) الاشراف لابن أبي الدنيا

عماله إن الهدايا هي الرشا . وكان عمر إذا قدم العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلا كي لا يحتجنوا شيئاً من الأموال . وكان يعس بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم ، ويتعهد أهل البؤس والفاقة بنفسه .

كتب إلى أبي موسى الأشعري عامله على العراق يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً ، يريد أن يعرف حالتهم بعد أن تبنكوا [1] في النعيم وعهدت اليهم مصالح الناس ، فأدرك عامل البحرين من بين كثير من العمال أن عمر يرغب في الخشونة وعرف أنه سيدعوهم إلى طعامه فتجوَّعَ له واتخذ خفين مطارقين [2] ولبس جبة صوف ولاث [3] عمامته على رأسه فدعاهم عمر إلى خبز وأكسار [4] بعير فجعلوا يعافونه لأنهم حديث عهدهم بلين العيش ، وعمر يلحظهم ، ولفت عامل البحرين نظر عمر ، وتهافته على تناول الطعام ، فسأله عمر عن عمله ثم عن جُعله فأجاب إنه يرزق ألفاً فقال له عمر : إنه كثير ما تصنع به؟ قال : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لي فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين . فأمر عمر أبا موسى أن يستبدل بأصحابه ، وأبقى عامل البحرين في عمله لأنه رآه مقلا متقشفاً لا يخشى أن يسرف في المال . وولى عمر رجلًا بلداً فوفد عليه [5] فجأة مُدَهناً حسن الحال في جسمه عليه ردان فقال له عمر : أهكذا وليناك ثم عزله ، ودفع اليه غُنَيْمات يرعاها ثم دعا به بعد مدة فرآه بالياً أشعث في ثوبين أطلسين [6] وذكر عند عمر بخير فرده إلى عمله وقال : كلوا واشربوا وادّهنوا فإنكم تعلمون الذي تُنهون عنه .

وكان إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل اليه الضعيف وهل يعود المريض ، فإن قالوا نعم ، حمد الله

---

(١) تبنكوا تمكنوا (٢) نعل مطرقة ومطارقة مخصوفة وخصف النعل أطبق عليها مثلها وخرزها بالمخصف (٣) لاث عمامته على رأسه عصبها ولفها (٤) جمع كسر وهو العظم عليه قليل لحم (٥) الكامل للمبرد (٦) الطلس بكسر الطاء الوسخ من الثياب والأطلس الثوب الخلق

تعالى و إن قالوا لا كتب اليه أقبل . وكان من سُنة[1] عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج فى كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعية وليكون لشكاتهم وقت وغاية ينهونها اليه . كتب إلى أبى موسى الأشعرى : أما بعد فإن للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركنى و إياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الله فإن الدنيا تنفدُ والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفساق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً و رجلاً ، رعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، و باشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها . فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السمن و إنما حتفها فى السمن ، واعلم ان العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام . وهذا من كتبه الممتعة فى الادارة وطريقته فيها .

و بلغ عمر أن أبا عبيدة عامله على الشام يُسبغ على عياله وقد ظهرت شارته فنقصه من عطائه الذى كان يجرى عليه ، ثم سأل عنه فقيل له قد شحب لونه وتغيرت ثيابه ، وساءت حاله ، فقال : يرحم الله أبا عبيدة ما أعف وأصبر . فردّ عليه ما كان حبس عنه وأجراه عليه . ودخل عمر منزل أبى عبيدة فلم يَر إلا لِبْداً وصَحْفة وشَنّاً ، وسأله طعاما فأخرج له من جونة[2] كسيرات فبكى عمر وقال: غيرتنا الدنيا كلنا غيرَك يا أبا عبيدة ، وأرسل اليه أربعمئة دينار ، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها فوزعها أبو عبيدة كلها . وأرسل مثلها إلى معاذ ابن جبل فوزعها إلا أشياء قليلة سألته امرأته إياها لحاجتها . فقال عمر لما أخبر بذلك الحمد لله الذى جعل فى الاسلام من يصنع هذا .

(١) تاريخ الطبرى (٢) الجونة سلة صغيرة مغشاة بالأدم

وكان معظم عمال عمر على غرار أبي عبيدة ومعاذ من التقشف والتبلغ باليسير ، وكان إذا لم تقنع نفسه بحسن سيرهم على الصورة التى لا يرى غيرها لا يتلكأ عن عزلهم . فقد شكا أهل حمص عاملهم سعيد بن عامر وسألوه عزله لأنه لا يخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله فى الشهر يوم لا يخرج فيه ، فلما أيقن عمر أن عامله يعجن كل يوم خبزه ويجلس حتى يختمر فيخبزه ، ثم يخرج للناس ، وأنه يجعل الليل كله للعبادة ، وأنه يشتغل مرة فى الشهر بغسل ثيابه ، بعث اليه عمر ألف دينار يستعين بها فوزعها على جيش من جيوش المسلمين

وقدم سعيد بن عامر على عمر بالمدينة فلم ير معه إلا عكازاً وقدحاً فقال له عمر: ليس معك إلا ما أرى،فقال له سعيد : ما أكثر من هذا ، عكاز أحمل عليهزادى وقدح آكل فيه . وكان من عماله عُمَير بن سعد [1] وفيه يقول عمر : وددت لو أن لى رجلا مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين . وعمير هذا هو الذى قال على منبر حمص : « لا يزال الاسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل » وهذا من أبعد مرامى الادارة العادلة إذا أحس أهل عمل من عاملهم العدل لا يحتاج فى سياستهم إلى شيء من الشدة . كتب عمر إلى عمير أيام كان عامله على حمص أقبل بما جبيت من فيء المسلمين . فسأله عمر عما عمله قال : بعثتنى حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شيء لأتيتك به . قال فما جئتنا بشيء . قال : لا . قال جددوا لعمير عهداً . فقال عمير : لا عملت ولا لأحد بعدك ، والله ما سلمت بل لم أسْلَمْ لقد قلت لنصرانى أى أخزاك الله . فهذا ما عرضتنى له ياعمر ، وإن أشقى أيامى يوم خلقت معك ياعمر . وكان إذا استعمل عاملا كتب عهده [2] : « وقد

(١) طبقات ابن سعد (٢) أسد الغابة لابن الاثير

بعثت فلانا وأمرته بكذا » فلما استعمل حذيفة بن اليمان على المدائن كتب فى عهده أن اسمعوا له وأطيعوه وأعطوه ما سألكم . فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ما شئت . قال أسألكم طعاما آكله وعلف حمارى ما دمت فيكم . فأقام فيهم ، ثم كتب اليه ليقدم عليه . فلما بلغ عمر قدومه كمن له فى الطريق فلما رآه عمر على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخى وأنا أخوك .

فعمر إذاً لم يختر للأعمال إلا أفاضل الرجال ممن كانوا على سمته وزهده . وكان كثيراً ما يستعمل قوما ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل ويقول : أكره أن أدنس هؤلاء بالعمل . وكان يشاور [1] فى كثير من الوقائع حتى قال يوما لأصحابه أشيروا علىّ ودلونى على رجل أستعمله فى أمر قد دهمنى فقولوا ما عندكم ، فإنى أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثى فنشير على أمير المؤمنين به ، فأحضره وولاه ، فوفق فى عمله ، وقام فيه بما أربى على رجاء عمر فيه وزاد على عمله ، فشكر عمر من أشاروا عليه بولاية الربيع .

كتب إلى عامله على البحرين العلاء بن الحضرمى أن سِر إلى عُتبة بن غَزْوان فقد وليتك عمله ، واعلم أنك تَقْدَم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وإنى لم أعزله ألا يكون عفيفاً صليباً شديد البأس ، ولكن ظننت أنك أغنى عن المسلمين فى تلك الناحية فاعرف له حقه . ولما سير عمر عُتبة ابن غزوان إلى البصرة ليقاتل من بالأبلة من فارس قال له : انطلق أنت ومن معك حتى تأتوا أقصى مملكة العرب وأدنى مملكة العجم ، وأمره أن يشاور عرفجة بن هرثمة لأنه ذو مجاهدة للعدو وذو مكايدة . وعزل عن بعض ولاية الشام شرحبيل

---

(١) سراج الملوك للطرطوشى

ابن حَسَنة واستعمل بدلا منه معاوية بن أبي سفيان واعتذر على رؤوس الإشهاد أنه لم يعزله عن شيء هجَّنه به بل أراد رجلا أقوى من رجل . و بعث المغيرة بن شعبة عاملا على الكوفة لأنه قوى مشدد ، وكان عمر سأله عن الضعيف والقوى فقال : أما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له ، وأما القوى المشدد فقوته لك وللمسلمين وشداده عليه . وعزل عامله على ميْسان النعمان بن عدى لأنه بلغه أنه قال أبياتاً في التشبيب تشير إلى أنه يتعاطى الراح ، مع أنه عارف بأن ذلك لم يكن وإنما هو قول شاعر . وعزل زياد بن أبي سفيان فقال زياد : أعن عجز عزلتني يا أمير المؤمنين أم عن خيانة؟ فقال : لا عن ذاك ولا عن هذا ، ولكني كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص أن شاور طلحة الأسدى وعمرو بن معدى كرب في أمر حربك ، ولا تولهما من الأمر شيئاً ، فإن كل صانع هو أعلم بصنعته . وكتب إلى النعمان [١] بن مقرّن أن قِبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معدى كرب وطُلَيْحة بن خُوَيْلد فشاورهما في الحرب ولا تولهما شيئاً من الأمر . و بعث مع أبي عبيد بن مسعود سليطَ بن قيس لفتح العراق وقال له : لولا عجلة فيك لوليتك ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكيث .

وسأل عمر عمرو بن معدى كرب عن خبر سعد بن أبي وقاص نفسه فقال : متواضع في حبائه ، عربي في نمرته ، أسد في تأموره [٢] ، يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة . ولما شكا أهل الكوفة سعداً عزله عمر ولم تأخذه به هوادة ، لأن الغاية انفاذ العمل النافع للناس على يد أي كان من عماله ، وأن لا يفتح للمسلمين بابا للشكوى . وخير ضروب السياسة أن يكون عمل العاملين فيها أكثر من قول

(١) مروج الذهب للمسعودى (٢) التأمور عرين الأسد والبهرة الحيرة والحياء جلسة خاصة بالعرب

القائلين . وسعد هذا هو الذى كان أجمع الصحابة على توسيد حرب العراق اليه فأوصاه عمر بقوله ياسعد سعد بنى وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله و بين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم و وضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية و يدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبي منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر . هذه عظتى اليك إن تركتها و رغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين . وذهب سعد بهذه النصيحة فكان على يده فتح العراق .

كان عمر على شدة فيه مع عماله إذا أحسّ باعتداء أو شبه اعتداء وقع على أحدهم يشتد على المعتدين فى تلك الناحية ليبقى للعامل هيبة توقره فى الصدور ؛ ومهابة يلجم بها العامة والخاصة . وقع له مرة أن حصب[1] أهل العراق إمامهم ، وقد كان عوّضهم إماماً مكان إمام كان قبله فحصبوه ، فغضب وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، ودعا عليهم . ذلك لأن شكوى العراقيين عاملهم كانت باطلة ، وهو الذى يتحرى فى انتقاء عماله ولا يستسلم لأحد منهم، بل يجعل بعضهم رقيبا على بعض،وله عليهم سلطان دونه كل سلطان. شكا عتبة بن غزوان[2] تسلط سعد بن أبى وقاص عليه فسكت عنه عمر ، فأعاد عتبة ذلك مراراً ، فلما أكثر على عمر قال : وما عليك ياعتبة أن تقر بالإمرة لرجل من قريش له صحبة مع رسول الله وشرف . فقال له عتبة: ألست من قريش والرسول يقول حليف القوم منهم،ولى صحبة مع رسول الله قديمة لا تنكر ولا تدفع. فقال عمر: لا ينكر ذلك من فضلك . قال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع اليها أبداً . فأبى عمر إلا أن يرده فرده فمات بالطريق . وهذا من تأثير عمر فى

(١) حصبه رجمه بالحصباء وستعمل فى كل رمى مطلقا (٢) طبقات ابن سعد

عماله ومعاملته لهم كما تريد المصلحة لا كما يريدون مثال آخر يخالف هذا ــ والإدارة تختلف باختلاف الأزمان والبلدان ــ خالف معاوية وهو أمير الشام عبادة بن الصامت فى شىء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية فى القول. فقال عبادة لا أساكنك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة . فقال عمر : ما أقدمك . فأخبره . فقال : ارجع إلى مكانك يفتح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك . وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه ، ذلك أن عمر لم يكن يستغنى عن خدمة معاوية ولا عن فضل عبادة.

كان عمر وهو خليفة لا يميز نفسه عن جمهور الناس بشىء فى لباسه ومركبه وحركته ، يختلط بالشعب كأنه واحد منهم ، ومع هذا كان الناس يخافونه ، ولو وقع مثل هذا التواضع أو التبذل من أحد أفراد الناس لجسروا عليه وضعف سلطانه عليهم إن كان من أرباب السلطان . ولقد كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر فى أن يلين لهم فإنه قد أخافهم حتى إنه أخاف الأبكار فى خدورهن . فقال عمر : إنى لا أجد لهم إلا ذلك إنهم لو يعلمون ما لهم عندى لأخذوا ثوبى عن عاتقى . وقال عمر : قد ألنا وإيل علينا أى ولينا وولى علينا . معناه قد ولينا فعلمنا ما يصلح الوالى ، وولى علينا فعلمنا ما يصلح الرعية .

وما أرانا نبعد عن الصواب إذا حكمنا أن شطراً عظيما من وقت عمر فى ولايته كان يصرفه فى سياسة العمال وكشف حالهم وانتقاء أصلحهم وتسليكهم فى الإدارة والسياسة والقضاء على أسلوب محكم لا تكاد تلحق به فى هذا القرن أعرق الدول الحديثة فى المدنية وأفضلها نظمها الإدارية والدستورية . ولعل فى الناس من يقول إذا عرضنا هنا لمصادرات عمر ، وهذا أيضاً من باب الشدة المتناهية والحجر على حرية العمال ، وادخال الخوف عليهم بالضرب على أيديهم على صورة تحرمهم متع الحياة ، ولا توليهم منه غير الجفاء والخشونة فى المعاملة . نعم هكذا كان عمر ، وهكذا وضع أساس الملك الإسلامى ؛ هو لا يجوز إغناء أفراد بإفقار أمة ، ولا أسعاد فئة

بإشقاء مجموع . كان ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الامراء[1] ، فكان الوالى فى نظره فرداً من الأفراد ، يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس، فكان حب المساواة لا يعدله شىء فى أخلاقه . اذا اشتكى العاملَ أصغرُ الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكى والمشكو منه يُسوَّى بينهم فى الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قِبَل العامل اقتص منه ان كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله . ومن عادة عمر أن يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم . مرّ ببناء يبنى[2] بحجارة وجص فقال : لمن هذا؟ فذكروا عاملاً له على البحرين فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ! وشاطره ماله . وكان يقول : لى على كل خائن أمينان الماء والطين.

ولقد صادر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لانه فشت له فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن له حين ولى مصر ، فادعى عمرو أن أرض مصر أرض مزدرعٍ ومتجرٍ وأنها أثمان خيل تناتجت وسهام اجتمعت وأنه يصيب فضلاً عما يحتاج اليه لنفقته ومع ذلك قاسمه عمر ماله . وصادر أبا هريرة عامله على البحرين لأنه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل عشرون ألفاً وادعى أن خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وأنه اتجر فقال له عمر : أنظر رأس مالك ورزقك فخذه ، وأجعل الآخر فى بيت المال . يريد بذلك أن يحصر العامل وكده فى خدمة أهل عمله ، أما الإتجار وتثمير الأموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ، فإن لهؤلاء ما يتبلغون به من رزق . وكان يرى فى مصادرة العمال وقهرهم ترويضاً لهم على الطاعة وترك التبجح والإدلال على الرعية . وممن شاطرهم أيضاً النعمان بن عدى عامله على مَيْسان ، ونافع بن عمرو الخزاعى عامله على مكة ، ويعلى بن منية عامله على اليمن ، وسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامله فى

---

(١) تاريخ الأمم الاسلامية لمحمد الخضرى (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة

الشام ، وآخذ خالد بن الوليد لأنه أمره أن يحبس المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فأجاز الأشعث لشعره فغضب عمر ، وكان أحد الشعراء كتب اليه يقول :

نحج إذا حجوا ونغزو إذا غزوا	فأنى لهم وَفْر ولسنا بذى وفر
إذا التاجر الهندى جاء بفأرة	من المسك راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجدته	سيرضون ان شاطرتهم منك بالشطر

فشاطرهم عمر أموالهم وتولى ذلك منهم محمد بن مسلمه لثقته به[1] ولم ينتطح فى عمله عنزان . شاطر عمر سعداً وعمراً وخالداً وهم ممن يفتخر بهم الإسلام ، استكثر عليهم أن ينعموا و إن كان الأول فاتح العراق والثانى فاتح مصر والثالث فاتح الشام .

وقيل لعمر إن عياض بن غَنْم ، وهو من كبار الفاتحين ورجال الإدارة فى حكومته ، يتوسع كثيراً فى إعطاء المال بحيث لا يقل فى هذا المعنى عن خالد بن الوليد فقال: إن ذلك من شأن أبى عبيدة ، وعياض من أقرباء أبى عبيدة . وعياض ابن غنم هذا جلد صاحب دارا حين فتحت فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض ، ثم مكث ليالى فأتاه هشام فاعتذر اليه ، ثم قال هشام لعياض : ألم تسمع رسول الله يقول إن من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً فى الدنيا . فقال عياض : قد سمعنا ما سمعت ورأينا ما رأيت ، أو لم تسمع رسول الله يقول من أراد أن ينصح لذى سلطان عامة فلا يُبْدِه له علانية ولكن ليخلُ به فإن قبل منه فذاك و إلا كان قد أدى الذى عليه . و إنك يا هشام لانت الجرىء إذ تجترىء على سلطان الله فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله .

كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بالمال[2] بعد حبس ما كان يحتاج إليه ، والمال يجبى من أموال الجزية وما يؤخذ من الخراج ، وكان النصارى واليهود

(١) طبقات ابن سعد (٢) خطط المقريزى

أقروا على ما فى أيديهم من الأرض يعمرونها و يؤدون خراجها ، ووضع فى مصر عمر على كل حالم دينارين جزية إلا ان يكون فقيراً ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم . وأحصى عمرو بن العاص المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف و برنساً أو عمامة وسراويل وخفين فى كل عام أو بدل الجبة الصوف ثو باً قبطياً . واستبطأ عمر فى بعض السنين خراج مصر فكتب إلى عمرو : أما بعد فانى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيقة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجَلَداً وقوة فى بر و بحر وأنها قد عالجها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكما مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب إلى آخر ما قال له ، وهزّ أعصابه بكلمات قاسية فأجابه عمرو : لقد عملت لرسول الله ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به سيئاً وقال : فامض فى عملك فان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها . فكتب اليه إنى لم أقدّمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فاذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فانما هو فىء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون . . فأجابه عمرو : إن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق خيراً من أن نُخَرِّقَ (١) بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنًى بهم عنه .

ومع هذه الهيمنة من عمر على عماله نراه يشهد لعمرو بن العاص بحسن السياسة دليلا على تقديره عامله قدره . وكان من رأى عمرو بن العاص فى سياسة مصر أن

---

(١) خرق بالشىء ككرم اذا جهله ولم يحسن عمله

الذى يُصلح هذه البلاد وينميها ، ويقرّ قاطنيها فيها ، ألاّ يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، ولا يُستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها . وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . وكان عمر يقول إذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو بن العاص المثل السائر فى حسن السياسة بين رجال العرب ، دهش قبط مصر بجميل عمله ، فدخلوا فى الاسلام كثيراً . وأدى به التسامح ان رفع رجل نصرانى اليه أن غُرْفة بن الحارث الكندى من أصحاب الرسول الذين سكنوا مصر ضر به فوق أنفه فقال عمرو للصحابى : إنا قد أعطيناهم العهد ، كأنه يريد أن يؤاخذ الصحابى بما فعل ، فقال غرفة : معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبى و إنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم و بين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون ، و إن أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أن نخلى بينهم و بين أحكامهم الا أن يأتونا راضين بأحكامنا فنحكم بينهم و إن غيبوا عنا لم نتعرض لهم . فقال عمرو : صدقت . خطب يوماً فى الجابية من حوران فما قاله : ألا و إنى ما وجدت صلاح ما ولانى الله إلا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا و إنى ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ويعطى فى حق ويمنع من باطل . كتب معاويه الى عمر يصف له سوء حال الشام فكتب اليه فى مَرَمَّة حصونها وترتيب المقاتلة فيها، و إقامة الحرس على مناظيرها واتخاذ المواقيد[1] لها.

جاء عمر الشام مرات أربعاً يكشف حال عمالها و يعنى بقسمة الأرزاق و يسمى الشواتى والصوائف أى غزوات الشتاء والصيف ، ويسد الفروج والمسالح[2] فى كل

(١) المناظير قباب مبنية على رؤوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها و يشرف بعضها على بعض ويقام فيها حراس يوقدون النيران عند ما يرون اقبال العدو من جهتهم فيوقد حراس المناظير الذين يلونهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسلحة فى زمن قليل . ويقال لهذه المواقيد المناور أيضاً (التعريف بالمصطلح الشريف) (٢) المسلحة الثغر والمراقب وجمعه مسالح وهى مواضع المخافة وسموا مسلحة لأنهم يكونون ذوى سلاح أو لأنهم يسكنون المسلحة وهى كالثغر والمرقب يكون فيه أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غرة فاذا رأوهم أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له . والفروج الثغور أى موضع المخافة

كورة ويستعمل أُناساً على السواحل من كل كورة أو يقسم المواريث بعد طاعون عمواس ، وكان هلك فيه من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً . وقيل إن عماله استقبلوه مرة بأبهة فنزل وأخذ بالحجارة ورماهم بها وقال : ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم إياى تستقبلون فى هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين والله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم . واعتذر له معاوية عامله فى الشام عن الموكب الثقيل الذى كان له قائلاً : إنا فى بلاد لا تمتنع فيها من جواسيس العدو فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فإن أمرتنى بذلك قمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت . فلم يأمره به ولم ينهه عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : لَحَسَنٌ ما صدر من هذا الفتى عما أوردته فيه فقال : لحسن مصادره وموارده جشمناه ماجشمناه . وقيل إنه قدم معاوية على عمر من الشام[1] وهو أبض[2] الناس فضرب عمر بيده على عضده فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشراك فقال : هذا والله لتشاغلك بالحمامات وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حسرات على بابك . وقال عمر : لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولاً فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع عنى ، أما هم فلا يصلون إلىّ ، وأما عيالهم فلا يرفعونها إلىّ ، فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين .

وخصلة أخرى أيضاً لعمر ، تعد من بدائع إدارته الحسنة ، وهو أنه ما كانت تفوته مسألة فيها تقوية قلوب الأمة والاعتماد على نفسها خطب مرة فقال : (أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلىّ فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلىّ صلاحكم ، عزيز علىّ عتبكم ، وأنتم أناس عامتكم حضر فى بلاد ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه)

(١) الكامل للبرد (٢) يقال أبيض بض شديد البياض أو رقيق البشرة الذى يؤثر فيه كل شىء.

يريد أن يعلم الناس أن لا يكثروا من الرجوع الى الحاكم للفصل بينهم فى خصوماتهم ، ليصرف وقته فى التفكير فى أمورهم الخطيرة ، وأن يعتمدوا على أنفسهم لا على صاحب السلطان ، وأن يعرّفهم حالة الحاضر والبادى منهم ، ويعلمهم أن يعملوا ولا يسرفوا لأنهم فقراء . ولطالما قال لقومه أصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ولقليل فى رفق خير من كثير فى عنف . يريد أن يسوق الناس الى المدنية بتؤدة على صورة فيها تدريج . وكان يقول من كان له مال فليصلحه ، ومن كانت له أرض فليعمرها وإنه يوشك أن يجىء من لا يعطى إلا من أحب . ونظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدِّرة وقال له : لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله . وكان يقول ليس قوم أكيس من أولاد السرارى لأنهم يجمعون عزّ العرب ودهاء العجم .

وكان غرام عمر أبداً أن يلقن قومه العمل ويبعد بهم عن حياة الكسل ، ولطالما قال لكتابه وعماله إن القوة على العمل أن لا تؤخروا عمل اليوم لغد فإنكم إذا فعلتم ذلك تداءبت [1] عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدأون ولا بأيها تأخذون . وما كان يرى ابعاد العامة عن المجالس العالية لئلا تفوتهم الفوائد وليتربوا على أيديهم بما يسمعون وينقلون عنهم . ويوزع الأعمال بين الكفاة وأرباب التخصص ويقول : أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيّ بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ، فان الله جعلنى له خازناً وقاسماً .

وكتب عمر الناس على قبائلهم أى أحصاهم ، ففرض الفروض وأعطى العطايا على السابقة ، بدأ بالأقرب فالأقرب من الرسول وفرض لأهل بدر ولمن بعدهم إلى الحديبية وبيعة رضوان ثم لمن بعدهم ولأهل القادسية واليرموك وأعطى نساء النبى

---

(١) تداولت

وغيرهم و رزق الصبيان والأئمة والمؤذنين والمعلمين والقضاة والشعراء . وحلف على أيمان ثلاث فقال : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق به من أحد والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكا ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه فى الاسلام ، والرجل وقدمه فى الاسلام ، والرجل وغناؤه فى الاسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظّه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

جمع عمر المسلمين لأول عهده وقال ما يحلّ للوالى من هذا المال فقالوا جميعاً أما لخاصته فقوته وقوت عياله ، لا وَكْس ولا شطط ، وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف ، ودابتان إلى جهاده وحوائجه وصلاته وحجه وعمرته ، والقسم بالسوية وأن يُعطى أهل البلاء على قدر بلائهم ويرم أمور الناس بعدُ ، ويتعاهدهم عند الشدائد والنوازل ، حتى تنكشف ويبدأ بأهل الفيء . وكان عمر إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه فربما عسُر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه . وطلب من أحد أصحابه أن يقرضه مالا فقال له ما يمنعك أن تقترض من بيت المال فأجابه إنه إذا مات وهو له مدين ربما غفلوا عن تقاضي ما اقترض ، أما صاحبه فانه لحرصه على ماله يطالب الورثة بماله فيستوفيه وتبرأ ذمة عمر .

ومما تعلقت به همة عمر إحداث أوضاع جديدة اقتضتها حالة التوسع فى الفتوح فهو أول من حمل الدّرة [1] وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين الفرس والروم ، دونها له عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس . والديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب

(١) الدرة كالمخصرة أو خيزرانة صغيرة يضرب بها

يُكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وعرّفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ماتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق بعد حين على جميع سجلات الحكومة وعلى المكان الذى يجلس فيه القائمون على هذه السجلات والأضابير والطوامير . وثبت أنه كان له سجن [١] وأنه سجن الحطيئة على الهجو وسجن ضَبيعاً على سؤاله عن الذاريات والمرسلات والنازعات وشبههن . وضرب به مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق ، وكتب أن لايجالسه أحد فلو كانوا مائة تفرقوا عنه حتى كتب اليه عامله أن حسنت توبته ، فأمره عمر فخلّى بينه وبين الناس . وكانت أعمال عمر جداً كلها لا يجوز لأحد أن يجلس فى المسجد فى غير أوقات الصلاة ، وبنى فى المسجد رحبة تسمى البطيحا ، قال من كان يريد أن يلغط أو ينشد شعراً أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة . وما كان المسجد فى أيامه لغير الصلاة والقضاء . وكان الخلفاء الراشدون يجلسون فى المسجد لقضاء الخصومات . ولما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادى وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم [٢]

وضع عمر أول ديوان فى الاسلام للخراج والاموال بدمشق والبصرة والكوفة على النحو الذى كان عليه قبل . وقيل إن أول ديوان وضع فى الاسلام هو ديوان الانشاء [٣] ودواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين العراق بالفارسية ودواوين مصر بالقبطية ، يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين . والسبب فى تدوين الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً بخمسمائة ألف درهم فاستعظمها وجعل عليها حراساً فى المسجد فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين يكتبون فيها « الأسماء ومالو واحد واحد وجعل الأرزاق مشاهرة » وجعل عمر

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢) التراتيب الادارية لعبد الحى الكتانى (٣) نهاية الارب للنويرى وصبح الأعشى للقلقشندى

تابوتا أى صندوقا لجمع صكوكه ومعاهداته . وجند الأجناد أى ألّف الفيالق، فصيّر فلسطين جنداً والجزيرة جنداً ، والموصل جنداً وقِنّسرين[١] جنداً ، وأصبح كل جند فى الشام والعراق يتألف من مقاتلة المسلمين ، يقبضون أعطياتهم من البلد الذى نزلوه ، فأصبحت الجندية خاصة بفئة من المسلمين ، ويسير الناس بقضهم وقضيضهم إلى الزّحف عند الحاجة حتى النساء والأولاد . وما كان الجند يحملون كلهم فى المسالح بل يترك بعضهم فى البلاد يكونون على استعداد للوثبة عند أول إشارة ، والغالب أنه كان يُترك فضل فى بيوت الأموال خارج الحجاز يستخدم فى طارىء إذا طرأ . وما كانت الصوافى تحمل كلها إلى الحجاز ، بل يدّخر بعضها فى بيوت الأموال فى الشام والعراق ومصر ، وجزء عظيم من دخل الدولة يصرف فى الوجوه التى أشرنا اليها .

وعمر هو أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من استقضى القضاة ، وأول من أحدث التاريخ الهجرى فأرخ سنة ست عشرة بهجرة رسول الله من مكة الى المدينة ، فكان أول من أرخ الكتب وختم على الطين . قال اليعقوبى وأمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأمره أن يكتب لهم صككا من قراطيسه ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسفل الصكاك .[٢] وغيّر أسماء المسلمين بأسماء الأنبياء .[٣] وكان أول من مصر الأمصار ، مصّر المصرين البصرة والكوفة ، وكان إذا جاءته الاقضية المعضلة[٤] قال لعبد الله بن العباس : انها قد طرت علينا أقضية وعضل فأنت لها ولأمثالها ، ثم أخذ بقوله . وما كان يدعو لذلك احداً سواه . وكان فى المسائل العامة يسأل الناس فى المسجد عن آرائهم ثم يعرض رأيه ورأيهم على مجلس شوراه وهم من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه ، فكانت أعماله ثمرة ناضجة من الآراء الصائبة ، ولذلك ندرت هفواته فى الادارة بالقياس الى

---

(١) أقضية رسول الله للقرطبى (٢) المعارف لابن قتيبة (٣) كانت العرب تنتسب فى قبائلها فلما جاء الاسلام وغلب عليهم سكنى القرى والمدن حدث فيما بينهم الانتساب الى الاوطان كما كانت العجم . وأضاع كثير منهم أنسابهم فلم يبق لهم غير الانتساب الى أوطانهم «ابن الصلاح» (٤) أسد الغابة لابن الاثير

غيره ، لأنه يتروى ويعمل بآراء أهل الرأى . ولما أرسل عبد الله بن مسعود الى العراق وزيراً ومعلماً مع عمار بن ياسر الذى ولاه الامارة كتب الى أهل العراق « وقد جعلت على بيت مالكم عبد الله بن مسعود وآثرتكم به على نفسى » وقد يبعث إلى بعض الأقطار عاملا على الصلاة والحرب ويسميه أميراً [١] وعاملا على القضاء وبيت المال ويسميه معلماً ووزيراً كما فعل فى العراق ، أو يجمع للعامل بين الصلاة والخراج كعامل مصر . وتقسيم العمالات فى الشام يختلف عن اليمن ، وعامل البحرين لا يكون كعامل اليمامة وقد يبعث أناساً لمساحة الأرض ، وأناساً لتقدير الخراج ، وآخرين لاحصاء الناس ، وقال لعاملين له توليا مساحة العراق ووضع الخراج على سوادها : أخاف أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيقه ، لئن سلمنى الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن الى رجل بعدى أبداً . وقال : اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار فانى انما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويعدلوا عليهم ويقسموا فيئهم بينهم ويرفعوا الى ما أشكل عليهم من أمورهم .

وكان يرزق العامل بحسب حاجته وبلده ، ولما استعمل زيد بن ثابت على القضاء فرض له رزقا ، وكان يرزق عامله على حمص عياض بن غنم كل يوم ديناراً وشاة ومداً . وبعث الى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حُنَيْف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال . وأمر هذا أن يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين ، وفرض لهم شاة كل يوم ، وجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حُنَيْف . كان أبو بكر يساوى [٢] الناس فى العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول إنما عملوا لله فأجورهم على الله ، وإنما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لأعمالهم . وكان

(١) كان المغيرة بن شعبة أول من سلم عليه بالامرة وكانوا يكنون أمراءهم فقال : ينبغى أن يكون بين الأمير والرعية فرق ، وألزم أهل عمله أن يؤمروه ففعلوا واقتدى به سائر المسلمين فى أمرائهم « لطائف المعارف للثعالبى » (٢) سراج الملوك للطرطوشى

عمر يقول لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . ولم يقدر عمر الأرزاق إلا فى ولاية عمار فأجرى عليه ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلى معه فى كل شهر . وكان عطاء عثمان بن حنيف خمسة آلاف درهم وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم فى كل شهر وربع شاة فى كل يوم ، وأجرى على شريح القاضى مائة درهم فى كل شهر وعشرة أجربة ، وإنما فضل عماراً لأنه كان على الصلاة . قال الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين ألفاً من الناس . وأتاه[1] عبد الله بن عمر السعدى فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلى من أعمال المسلمين أعمالاً فإذا أعطيت العمالة كرهتها فقال : بلى . فقال عمر : ما تريد الى ذلك . قال : إن لى أفراساً وأعبداً وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتى صدقة على المسلمين . فقال عمر : لا تفعل فإنى كنت أردت الذى أردت ، وكان رسول الله يعطينى العطاء فأقول : أعطه أفقر اليه منى . فقال النبى : خذه فتموله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف فخذه ، ومالاً فلا تتبعه نفسك .

كان عمر يأمر الناس بالتفقه فى الدين ويجدُّ فى إرسال الفقهاء إلى الأمصار يفقهون المؤمنين ويعلمونهم دينهم وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يُسَمَّى القارىء من الصحابة غيره قال له : هل لك فى الشام فإن المسلمين نُزِفوا وإن العدو قد ذئروا[2] عليهم ، وذلك بعد طاعون عمواس . وكان يقول حين خرج معاذ[3] بن جبل الى الشام : لقد أخلّ خروجه بالمدينة وأهلها بالفقه ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس اليه فأبى علىّ وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبسه .

وفى كتب عمر الى قضاته وعماله كأبى موسى الأشعرى والقاضى شريح وأبى عبيدة

(١) تيسير الوصول لابن الديبع (٢) نزفوا فنوا وذأر عليه اجترأ (٣) طبقات ابن سعد

ومعاوية وغيرهم قوانين فى التشريع والإدارة سنها للمسلمين لا تزال الى يوم الناس هذا هى المعوّل عليها، ورسالته فى القضاء الى أبى موسى الأشعرى جمع فيها «جمل[١] الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً، ولا يجد محق عنها معدلا ، ولا ظالم عن حدودها محيصاً » ولقد قالوا : « إذا [٢] اختلف الناس فى أمر فانظر كيف قضى عمر ، فإنه لم يكن يقضى فى أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور » وكان أبداً يأخذ آراء أصحابه لا يقطع أمراً عظيما من دون استشارتهم ويقول : الرأى الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض . هذا ولو وضع علم عمر فى كفة كما قال ابن مسعود ، ووضع علم أحياء العرب فى كفة لرجح بهم علم عمر . وأُنشد عمر ذات يوم شعر زهير بن أبى سلمى فلما بلغ قوله :

فإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو[٣] نِفار أو جِلاء

جعل يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول : لا يخرج الحق من إحدى ثلاث ، إما يمين أو محاكمة أو حجة

وكانت المدينة فى أيامه أشبه بمدرسة يتخرج به فيها القضاة والعمال والقواد والأمراء فلا يبعث إلى الأمصار إلا من اختبره فى الجملة ، وقلما أخطأت فراسته فى الناس ، وهو المثل الأمثل فى حده . كان كعب بن سور جالساً عند عمر فجاءته امرأة تشتكى زوجها فقال لكعب : اقض بينهما، فلما قضى بما أعجبه وما لم يخطر له ببال قال لكعب : إذهب قاضياً على البصرة . ساوم عمر بفرس فركبه ليشوره[٤] فعطب فقال للرجل : خذ فرسك . فقال الرجل : لا . قال : اجعل بينى وبينك حَكَماً . قال الرجل : شريح .

---

(١) الكامل للمبرد (٢) طبقات ابن سعد (٣) النفار تنافر الى رجل يتبين حجج الخصوم ويحكم بينهم والجلاء ان ينكشف الأمر وينجلى فتعلم حقيقته فيقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين (٤) من شار الدابة شوراً وشورا راضها وقيل ركبها عند العرض على مشتريها وقيل اختبرها ينظر ما عندها

فتحا كما إليه فقال شريح : يا أمير المؤمنين خُذْ ما ابتعت ، أو رُدَّ كما أخذت . فقال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ، سر الى الكوفة فبعثه قاضياً عليها . قالوا و إنه لأول يوم عرفه فيه . وبقى شريح قاضياً هناك ستين سنة .

ومن الفقهاء فى أيامه أبو موسى الأشعرى ، وسلمان بن ربيعة الباهلى ، وأبو قُرة الكندى ، وأبو الدرداء ، وأبو سعيد الخُدْرى ، وعبد الله بن عباس . ومن عماله نافع بن عبد الحارث الخزاعى ، وسفيان بن عبد الله الثقفى ، وعبد الله بن أبى ربيعة ، وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وقَتادة بن النعمان ، وعُمَيْر بن عوف ، وعُمَيْر بن وهب بن خلف الجُمحى ، وعتبة بن مسعود ، وعدى بن أبى الزغباء الجُهْنى ، وعويم بن ساعدة ، وسهيل بن رافع ، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصارى ، وواقد بن عبد الله التميمى ، ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم . من كل من هو فرد فى علمه ، متميز بحسن سياسته وإدارته . كتب إلى ابى[1] موسى الأشعرى : إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس فأكرم وجوه الناس ، فبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف فى الحكم والقِسمة . يعنى أن عمر أوصى بالأعيان ، و إن كان يكره الشفاعة والوساطة . فقد توسط مولى عمر بأن يكتب كتاباً إلى عامله فى العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها فانتهره عمر وسبه وقال : أتريد أن يظلم الناس وهل هو إلا رجل من المسلمين يسعه ما يسعهم . ؟

كان ابن الخطاب يفحص أموراً لا تخطر ببال أحد . كتب إلى أبى موسى الأشعرى « إنى قد بعثت اليك مع غاضرة بن سَمُرة العنبرى بصحف فإذا أتاك لكذا وكذا فأعطه مائتى درهم و إن جاءك بعد ذلك فلا تعطه شيئاً واكتب إلىَّ فى أى يوم قدم عليك » يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجد والاهتمام

(١) الاشراف لابن أبي الدنيا

والحرص على الأوقات وضبط المواعيد ، هو يعطى من أرسله بالصحف مائتى درهم إذا جدّ فوصل البلد الذى عين له فى الأجل المضروب و إلا فيحرم أجرته. وكتب إلى ابى موسى الأشعرى أيضاً[1] إذا اتاك كتابى هذا فاضرب كاتبك سوطاً واعزله عن عمله . وذلك ان كاتب أبى موسى كتب إلى عمر (من ابو موسى) وكان عليه أن يقول (من أبى موسى) . ودبّر عام الرمادة (١٧ — ١٨) تدبيراً إدارياً ناجعاً عند ما رأى الناس يهلكون من المجاعة ، فكتب إلى أمراء مصر والشام والعراق أن يوافوه بالميرة فأتتـه القوافل تحمل طعاماً كثيراً وغيره ، فوسّع على الناس ، وكان قطع الطعام عن نفسه وأطعم الجياع ، ولولا تدابيره هذه لهلك أهل الحجاز جميعهم .

ومن جملة تدابيره الإدارية أنه [2] « حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجَل فشكوه فبلغه فقام فقال : ألا إنى قد سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جَذَعا ثم ثَنياً ثم رَباعياً ثم سَديساً ثم بازلاً ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بَزَل [3] ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حىٌّ فلا. إنى قائم دون شِعب الحَرّة آخذٌ بحلاقيم قريش وحُجَزها أن يتهافتوا فى النار » .

هذا مجمل من إدارة عمر ، وقد كان شديداً فى إقامة الحدود يقيمها على أقرب الناس اليه: حدّ فى الخمر ابنه ، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر ، لأن احد قبطها استعداه عليه . قال السائب بن يزيد كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله و إمارة أبى بكر وصدر من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرجلنا وأرديتنا، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين، حتى إذا عتوا وفسقوا جلدوا ثمانين.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (٢) تاريخ الطبرى (٣) بزل البعير بزولا نطر نابه أى انشق بدخوله فى السنة التاسعة

ولما ضعف نصاب الشهادة على المغيرة بالزنا سُرّى عنه لانه ما أراد أن يرجم أحد من الصحابة[١] وأراد أن يحد جَبَلة بن الأيهم من ملوك غسان لان رجلا فزاريا[٢] في الحج وطئ على إزاره فلطمه جبلة فهشم أنفه ، وشكاه الفزارى فاراد عمر جبلة على أن يفتدى نفسه أو يأمر الرجل بلطمه ،فقال جبلة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكما ، وسوّى بين الملك والسوقة فى الحد . ففر جبلة والتحق بالروم . وكان يساوى بين الناس فى القضاء مهما علت منزلتهم ، و بلغه عن بعض عماله وهو فى دار الحرب أنه تعدى حداً من حدود الله فأغضى عنه لئلا يعتصم ببلاد الروم .

وكان يعرف أن الرسول قال : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً ، فسكت عمر عنهم ، وراعى العهود التى أعطاها الرسول لهم ، ولما كان من جملة شروط نصارى نجران أن لا يأكلوا الربا أمر بإجلائهم ، واشترى منهم أرضهم وأوصى بهم أهل الشام والعراق. ولما انطلق انصارى بنى تغلب هاربين من الجزية أضعفها عليهم[٣] وشرط عليهم أن لاينصّروا أولادهم ، ولم يسمع لقول أحد بنى تغلب أنهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية ، وقوله له مهدداً : لا تعن عدوّك عليك . وكان يتحامى استعمال النصارى وعرضوا عليه كتاباً منهم فأبى أن يستعملهم . وكان إذا أراد[٤] أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم إليهم بالوعظ لهم، والوعيد على خلافهم أمره . وما كان يميز أحداً من آل بيته فى شيء ، وربما هضم بعض حقهم وأعطاه من هو أجدر منهم . قسم[٥] عمر مُروطاً[٦] بين نساء المدينة فبقى فيها مرط جيد

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (٢) تاريخ أبى الفداء (٣) المعارف لابن قتيبة (٤) تاريخ الطبرى
(٥) تيسير الوصول لابن الديبع (٦) المرط كساء من خز أو صوف يؤتزر به

فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا ابنة رسول الله التي عندك[1] فقال: أم سليط أحق به فإنها ممن بايع رسول الله ، وكانت تزفر[2] لنا القرب يوم أُحُد . وقال أحدهم لعمر اتق الله يا أمير المؤمنين فقال : لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم . وردّت عليه امرأة فرجع اليها وقال : رجل أخطأ وامرأة أصابت .

وكان لايقرب الشعراء ولكنه يُجرى عليهم رزقا يكفيهم . كتب مرة إلى المغيرة بن شعبة أن استنشد مَن قِبلَك من الشعراء ماقالوا فى الجاهلية والإسلام[3] فأرسل إلى الأغلب العجلى فقال إنه على استعداد لأن ينشده ، ثم أرسل إلى لبيد ابن ربيعة فقال أنشدنى . فقال : إن شئت أنشدتك مما عفى عنه من شعر الجاهلية قال : لا أنشدنى ماقلت فى الاسلام ، فانطلق إلى أديم فكتب فيه سورة البقرة فقال: أبدلنى الله مكان الشعر هذا . قال فكتب بذلك إلى عمر فكتب اليه عمرُ: إنه لم يعرف أحد من الشعراء حق الاسلام إلا لبيد بن ربيعة فأنقص من عطاء الأغلب خمسمائة واجعلها فى عطاء لبيد .

* * *

نهج عمر بن الخطاب لمن يخلفه النهج الذى يجب السير عليه فى تدبير الملك . وأوصى الخليفة بعده أن يقر عماله سنة فيما قيل ، وأوصاه[4] بتقوى الله لاشريك له وبالمهاجرين الأولين خيراً وأن يعرف لهم سابقتهم، وأوصاه بالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ، وأوصاه بأهل الأمصار خيراً فانهم ردء العدو وحياة الفىء، وأن لايحمل فيئهم إلا عن فضل منهم، وأوصاه بأهل البادية خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الاسلام، وأن يأخذ من حواشى أموال أغنيائهم فيرده على فقرائهم،

---

(١) يريد أم كلثوم بنت على (٢) تزفر القرب تحملها (٣) الاشراف لابن أبي الدنيا (٤) البيان والتبيين للجاحظ

وأوصاه بأهل الذمة خيراً وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم إذا أدوا ماعليهم للمؤمنين طوعا أو عن يد وهم صاغرون ، وأوصاه بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم وأن لايؤثر غنيهم على فقيرهم ، وأن يشتد فى أمر الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لاتأخذه فى أحد رأفة حتى ينتهك منه مثل ما انتهك من حرم الله ، ويجعل الناس عنده سواء لايبالى على من وجب الحق ، ثم لاتأخذه فى الله لومة لائم ، وأوصاه أن لايرخص لنفسه ولا لغيره فى ظلم أهل الذمة ، وأنشده الله أن يرحم جماعة المسلمين ويجلّ كبيرهم ويرحم صغيرهم ويوقر عالمهم ، وان لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالفىء فيغضبهم ، ولا يحرمهم عطاياهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجمّرهم فى البعوث فيقطع نسلهم ، ولا يجعل المال دُولة بين الاغنياء منهم ، ولا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم .

ولما أفضى الأمر إلى عثمان بن عفان حافظ على الأوضاع التى وضعها عمر ، وكان أول كتبه إلى أمراء الأجناد : «قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان على ملأ منا ، ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم» وكان أول كتبه إلى عماله : «فان الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وأن صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وان أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم ما لهم وتأخذون بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم» وكتب إلى عمال الخراج : «أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم» وكتب فى الأمصار أن يوافيه العمال فى كل موسم ومن

يشكوهم ، وكتب إلى الناس في الامصار أن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه فإني مع الضعيف على القوى ما دام مظلوماً إن شاء الله . »

واعتمد عثمان لأول ولايته في مشورته على من اعتمد عليهم الشيخان من قبل، وفي الولايات على بعض من كانوا عمالاً لعمر ثم على أناس من أهله وعشيرته ، وممن اعتمد عليهم مروان بن الحكم . وكان مروان في ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول يستشيرهم ويعمل بما يُجمعون له عليه . ولم يكن عثمان مبتدعاً بل كان متبعاً اتبع سيرة العمرين[1] في الحكومة . وما عزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة . وكثر المال في أيامه فكان لايتوقف في إنفاقه . قيل انه باع غنائم افريقية بخمسمائة الف دينار وأعطاها مروانًا ولم يطالبه بها ، ولم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها وَرِقًا ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف . وأعطى عبد الله بن الأرقم وكان عمر استعمله على بيت المال ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال : عملت لله وانما أجرى على الله .

وكان عثمان جواداً وَيحثّ عماله على الجود . قدم المدينة ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وهى أعمال غزنة فقال له عثمان : صِلْ قرابتك وقومك . ففرق في قريش والأنصار شيئاً عظيما من الأموال والكسوات[2] . وأرسل الى على بن أبي طالب[3] بثلاثة آلاف درهم وكسوة ، فلما جاءته قال : الحمد لله انا نرى تراث محمد يأكله غيرنا . فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك أترسل الى عليّ بثلاثة آلاف درهم . قال :

---

(١) يقولون العمران لأبي بكر وعمر لأن أهل الجمل نادوا لعلى بن أبي طالب : أعطنا سنة العمرين ، وعمر اسم مفرد لا كأبي بكر وإنما طلبوا الخفة « الكامل للمبرد » (٢) أسد الغابة لابن الأثير (٣) طبقات ابن سعد

كرهت أن أغرق ولم أدر ما رأيك قال : فأغرق . قال : فبعث اليه بعشرين ألف درهم وما يتبعها . قال : فراح على الى المسجد فانتهى الى حلقة وهم يتذاكرون صلات ابن عامر ، هذا الحى من قريش . فقال على : هو سيد فتيان قريش غير مدافع . وكان ذلك من سياسة عثمان وحسن إدارته .

ومن ذلك أن عامله على الكوفة كتب اليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها فكتب اليه عثمان : أما بعد ففضّل أهل السابقة والقُدْمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل .. اه .

وكانت [1] مغازى أهل الكوفة فى زمنه الرى وآذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بآذربيجان وأربعة بالرى وكان بالكوفة اذ ذاك اربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف فى كل سنة فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة .

وضعفت الأدارة فى النصف الأخير من عهد عثمان لشيخوخته، ولأنه لايستطيع من كان فى سنه أن ينظر فى جميع المسائل . واستقل بعض كبار العمال بأطماعهم فى الولايات ، وشاغب المحرومون على المنصوبين ، وكثيراً ما كان يصر على تنفيذ أوامره لا يبالى كثيراً بالشكاوى لعلمه بأنها صادرة على الأكثر عن أغراض شخصية، وما نفع اللين ولا الشدة يوم حُمّ القضاء فكان من قتله ما كان . ومن أهم

(١) تاريخ الطبرى

الأسباب فى مقتله غلطة إدارية بدرت منه ساق اليها الغضب والعجلة . قالوا انه احتمع[1] أناس من أصحاب النبي كتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ، وما كان من تطاوله فى البنيان ، وما كان من إفشائه العمل والولايات فى أهله و بنى عمه من بنى أمية أحداث وغلمة ، لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم : إن شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم ، وتعطيله الحد عليه وتأخيره ذلك عنه « جلده حين شهد عليه بشرب الخمر وأنه تعاطاها » وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ، ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذى حمى حول المدينة ، وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي ثم لا يغزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، و إنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدِّرة والخيزران . ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب فى يد عثمان ، وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود وكانوا عشرة ، فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب فى يد عمار ، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقى وحده ، فمضى حتى جاء دار عثمان فأستأذن عليه فأذن له فى يوم شات ، فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بنى أمية فدفع اليه الكتاب فقرأه فقال له : أنت كتبت هذا ؟ قال نعم . قال : ومن كان معك ؟ قال : كان معى نفر تفرقوا فَرَقاً منك قال : ومن هم ؟ قال : لا أخبرك بهم . قال : فلم اجترأت عليَّ من بينهم ؟ فقال مروان : يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود (يعنى عماراً) قد جرأ عليك الناس وانك إن قتلته نكلت به من وراءه . قال عثمان : اضربوه

---

(١) الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة

فضربوه وضرب به عثمان معهم حتى فتقوا بطنه ، فغشى عليه فجروه حتى طرحوه على باب الدار . وغضب فيه بنو المغيرة وكان حليفهم . ذلك لان عماراً كان من أعظم الصحابة ومن النقباء فى مجلس شورى الرسول . ومناقبه كثيرة فى الإسلام ، فمثل هذا لا يضرب على هذه الصورة البشعة، ومكانته مكانته بين المسلمين. والمثل العربى يقول العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة أو الإشارة ، ومعاملة عمار بهذه القسوة ساقته إلى ان كان من أعظم من ألّب الناس على عثمان وخدم علياً ضروب الخدم حتى قتل فى صفين .

ومن عمال عثمان عبد الله بن الحضرمى ، والقاسم بن ربيعة ، وعبد الله بن عامر ، وحبيب بن مسلمة الفهرى ، وأبو الأعور الأسلمى ، وعلقمة بن حكيم ، وجابر بن فلان المزنى ، وسماك الأنصارى ، والقعقاع بن عمر ، وجرير بن عيلان ، والأشعث ابن قيس ، وعتيبة بن النهاس ، ومالك بن حبيب ، وسعيد بن قيس ، والسائب بن الأقرع ، وعقبة بن عامر ، ومعاوية بن ابى سفيان ، والغالب عليه مروان بن الحكم. وكان عثمان ست سنين فى ولايته وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب وكان عمر رجلاً شديداً [١] قد ضيق على قريش أنفاسها لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً إعظاماً له و إجلالاً وتأسياً به واقتداء ، فلما وليهم عثمان وليهم رجل لين ثم أنكر الناس عليه أشياء أشَراً و بَطَراً . قال ابن عمر : لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

أما طريقة علىّ بن أبى طالب فكانت أيضاً فى الادارة طريقة من سبقوه إلى الامامة : يولى العامل ويطلق يده على الجملة ويكشف حاله . ويدعو عماله إلى التبلغ بميسور العيش والرفق بالرعية ويضع لهم المنهاج الذى يسيرون عليه . أوصى

---

(١) الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة

أحد عماله بأهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم ، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً فى شىء من الخراج، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم . ومما كتبه إلى الأشتر النّخعى وهو مما لم ينفذ و بقى فى حيز الأقوال، لمقتل الأشتر قبل أن يبلغ مصر قوله : وتفقد أمر الخراج بما يصلح اهله فإن فى إصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لان ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا ... و إنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، و إنما يعوز أهلها لإشراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .

ومما جاء فى هذا الكتاب : ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة ، فإنهم جماع من شُعَب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدَم فى الإسلام المتقدمة . فأنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضاً وأقل فى المطامع إشرافاً ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم وأبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها علية عندك أخبار عيونك، اكتفت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة فى بدنه . . . وجاء فى هذا الكتاب أيضاً : ثم ان للوالى خاصة و بطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف فى معاملة، فاحسم مادة أولئك

بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامّتك [١] قطيعة ، ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون موئنته على غيرهم.

ومن وصية لعلى بن أبى طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات، وهى أشبه بالأوامر العامة : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروّعنّ مسلماً ، ولا تجتازنّ عليه كارهاً، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله . فاذا قدمت على الحىّ فانزل بمائهم، من غير أن تخالط أبياتهم. ثم امض اليهم بالسكينة والوقار . حتى تقوم بينهم فتسلّم عليهم ، ولا تُخْدج [٢] بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله أرسلنى اليكم ولىُّ الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه الى وليّه . فان قال قائل : لا. فلا تراجعه وان أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تُخيفَه ، أو تُوعده ، أو تَعْسِفَه أو تَرهقَه . فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فان كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا باذنه ، فان أكثرها له ، فاذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تُنفّرنّ بهيمة ولا تُفْزِعَنّها ، ولا تسوأن صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ثم خيره ، فاذا اختار فلا تعرّضن لما اختاره . ثم اصدع الباقى صدعين ثم خيره . فاذا ختار فلا تعرّضن لما اختاره . فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله ، فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقِله ، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذى صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله فى ماله . ولا تأخذن عَوْداً [٣] ولا هرِمة ولا مكسورة ولا مهلوسة [٤] ولا ذات عوَار . ولا تأمنن عليها الا من تثق بدينه . رافقاً بمال المسلمين حتى يوصّله الى وليهم فيقسّمه بينهم . ولا توكّل بها الا ناصحاً

---

(١) الحامة بتشديد الميم الخاصة (٢) لا تنقص (٣) العود المسن من الابل (٤) المهلوسة المريضة قد هلسها المرض وأفنى لحمها . والعوار العيب

شفيقاً وأميناً حفيظاً . غير معنِّف ولا مجحف ولا مُلْغب ولا مُتْعِب[١]. ثم أحْدُر الينا ما اجتمع عندك نُصَيِّره حيث أمر الله ، فاذا أخذها أمينك فاوعز اليه أن لا يحول بين ناقة و بين فصيلها ، ولا يُمصِّر [٢] لبنها فيضرَّ ذلك بولدها ، ولا يَجْهدنها ركوبا، وليعدل بين صواحباتها فى ذلك و بينها ، وليرفه على اللاَّغب ، وليستأن بالنقِب والظالع[٣]، وليوردها ما تمرُّ به من الغُدُر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض الى حوادِّ الطرق . وليروِّحها فى الساعات ، وليمهلها عند النطاف[٤] والأعشاب ، حتى تأتينا باذن الله بُدَّناً مُنقِيات[٥] غيرَ متعَبات ولا مجهودات ، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فان ذلك أعظم لأجركَ وأقرب لرشدك ان شاء الله »

ومن كتاب له إلى بعض عماله وفيه جماع سياسة المخالفين والموافقين إذا جعله كل عامل دستوره فى عمله قال : اما بعد فإن دهاقين[٦] أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونظرت فلم أرهم أهلا لأن يُدْنَوا لشركهم ، ولا أن يقصوا و يجفوا لعهدهم ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشو به بطرف من الشدة ، وداول لهم بين القسوة والرأفة ، وأمزج لهم بين التقريب والإدناء ، والإبعاد والإقصاء ان شاء الله . وكتب إلى زياد وكان عامله على فارس : أما بعد فإن رسولى أخبرنى بعجب، زعم أنك قلت له فيما بينك و بينه أن الأكراد هاجت بك فكسرت عليك كثيراً من الخراج وقلت له : لا تعلم بذلك أمير المؤمنين . يا زياد وأقسم بالله إنك

(١) المعنف ذو العنف بالضم وهو ضد الرفق، والمجحف الذى يسوق المال سوقا عنيفاً فيجحف به أى يهلكه، والملغب المتعب واللغوب الاعياء (٢) المصر حلب ما فى الضرع جميعه (٣) الطالع الذى ظلع أى غمز فى مشيه، والنقب ذو النقب وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تخرجه (٤) النطاف جمع نطفة وهى الماء الصافى القليل (٥) البدن بالتشديد السمان واحدها بادن ومنقيات ذوات نِقى وهو المخ فى العظم والشحم فى العين من السمن وأنقت الابل وغيرها سمنت وصار فيها نِقى وناقة منقية وهذه الناقة لا تنقى (٦) أرباب الأملاك من العجم

لـكاذب ، ولئن لم تبعث بخراجك لأشـدّن عليك شدة تدعك قليل الوفر ثقيل الظهر ، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتملاً . وكتب إلى كعب بن مالك: أما بعد فاستخلف على عملك واخرج فى طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السواد فتسأل عن عمالى وتنظر فى سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب .

قال اليعقوبى[1] إن علياً حكم بأحكام عجيبة حتى إنه حرق قوماً ودخّن على آخرين، وقطع بعض أصابع اليد فى السرقة ، وهدم حائطاً على اثنين وجدهما على فسق، وكان يقول استتروا ببيوتكم والتوبة وراءكم، من أبدى صفحته للحق هلك، إن الله أدب هـذه الأمة بالسوط والسيف ، وليس لأحد عند الإمام هوادة . قالوا فى القرآن أربعة سيوف : سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا فإمّا مَنّاً بعد و إما فداء ، وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم فى سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزاب . وسيف على أهل الـكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيف على أهـل البغى وهو المذكور فى سورة الحجرات ، ولم يسلّ الرسول هذا السيف فى حياته و إنمـا سلّه علىّ فى خلافته ، وكان يقول : أنا الذى علمت النـاس قتال أهل القبلة ، وله صلى الله عليه وسلم سيوف أخرى منها سيفه على أهل الردة وهو الذى قال فيه: من بدل دينه فاقتلوه، وقد سله أبو بكر من بعده فى خلافته على من ارتد من قبائل العرب . ومنها سيفه على المارقين وهم أهل البدع كالخوارج . وروى عن على أن النبى أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين. وقد حرق علىّ طائفة من الزنادقة فصوب ابن عبس قتلهم، وأنكر عليه تحريقهم بالنار فقال علىّ : ويح ابن عباس لبحاث عن الهنات .

وقالوا إن[2] علياً كان يقسم ما فى بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئاً. ودخل مرة إلى بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : يا صفراء اصفرّى، ويا بيضاء

---

(١) تاريخ اليعقوبي (٢) تاريخ أبى الفداء

ابيضّى وغرى غيرى ، لا حاجة لى فيك . وانتهى اليه أن أحد عماله يفرق و ينهب الأموال وكان عليها . ولامه أن قسم فىء المسلمين فى قومه ومن اعتراه من السـأَلة والأحزاب وأهل الـكذب من الشعراء كما يقسم الجوز . فأجابه عامله إنه منذ ولى العمل لم يرزأ من عمله ديناراً ولا درهماً ولا غيرها وأن العزل أهون عليه من هذه التهمة . وقال عليّ : لئن بقيت لنصارى بنى تغلب لأقتلن المقاتلة ولأسبين الذرية ، فإنى كتبت الـكتاب بينهم و بين رسول الله على أن لا ينصّروا أولادهم . ورأى على داراً للقاضى شريح عمرها فقوّمت عليه بثمانين ديناراً فوعظه و بكته ضمناً مع أنه كان يرزق خمسمائة درهم . وكان يقبل الهدية و يكافىء بمثلها . وهو من أكبر قضـاة الصَّدْر الأول .

ومن مجموع هذه الفقرات من كتب على بن أبى طالب عرفنا منزعه فى تدبير الملك ، وشدته على من يطيل يده بالأذى إلى الرعية و إلى أموال الدولة ، وكان هديه هدى أصحابه الثلاثة من قبل ، ولـكن التوفيق أخطأه ، استغرقت الفتن أيامـه ، أكثر من التنظيم والإدارة . وفقد الاستقرار فى البلاد للنزاع الذى قام بينه و بين خصومه . قال الجاحظ لا يعلم رجل فى الأرض متى ذكر السبق فى الاسلام والتقدم فيه، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الإسلام ، ومتى ذكر الفقه فى الدين ، ومتى ذكر الزهـد فى الأمور التى يتناصر الناس عليها ، كان مذكوراً فى هذه الخلال كلها إلا على .

ومما يعد من خطيئاته الادارية مبادرته إلى عزل جميع عمال عثمان ولم يتربص بالأمر وصول البيعة اليه من أهل الامصار[١] ، ولم يصخ إلى تحذير المحذّرين ولا نصح الناصحين بل أبى من الإبقاء عليهم أو أحداً منهم إباء تاماً كأنه قد وقر فى نفسه أن هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأن الإبقاء على واحد

(١) تاريخ الاسلام — الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار

منهم يوماً كاملاً نقص فى دينه، ولو أنه اتأد فى الأمر، وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الأمر وبايعه أهل الأمصار لما كان فى عزل الولاة شىء، لأن الخليفة هو الذى يعطى الولاة سلطانهم، فهو حر فى اختيار عماله. ولما طالبه أصحاب الرسول بإقامة الحد على من شرك فى دم عثمان بين لهم أن القوم الذين فى أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم، وقد ثارت اليهم العبدان وفاءت اليهم الأعراب، وبأيديهم الحول والطول بالمدينة، وأهلها لا يقدرون منهم على شىء، وطلب اليهم إنظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم.

ومن عماله عبد الله بن عباس وكان واليه على البصرة واليه الصدقات والجند والمعاون وقُثَمُ بن العباس وعبيد الله بن عباس وأبو الأسود الدوئلى وسهل بن حنيف وغيرهم.

ادارة الامويين

الادارة على عهد معاوية بن أبي سفيان

ما عرفت للحسن بن على طريقة فى الإدارة لأنه لم يطل أمره غير بضعة أشهر وذلك فى العراق والحجاز ، أما سائر الأقطار فكانت فى يد معاوية ، ولكن عبد الله ابن عباس من أعظم أنصار علىّ كتب إلى الحسن أن يولى أهل البيوتات والشرف يستصلح بهم عشائرهم حتى تكون الجماعة ، فان بعض ما يكره الناس ما لم يتعد الحق ، وكانت عواقبه تدعو إلى ظهور العدل وعز الدين ، خير من كثير مما يحبون ، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور ووهن الدين . حتى إذا كان عام الجماعة ونزل الحسن عن الخلافة وأجمع المسلمون على استخلاف معاوية (٤١ هـ) التفت هذا إلى سياسة الملك بحزم شديد وعزم أكيد ، وقد كان من قبل يسوس الناس تحت سلطان أعظم من سلطانه ، فأصبح يسوسهم بسلطانه مباشرة ، ولا يطلب منه حساب لغير نفسه ودياته . وساعد معاوية على حسن إدارة الملك سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت منذ كان كاتب وحى رسول الله يشهد روعة الرسالة ، ويأخذ من البيئة النبوية ، فتثقف على أتم ما يكون من الكمال ، ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الغناء فولى الشام عشرين سنة تمرس[1] خلالها بالسياسة ، واتسع أمامه أفق جديد من النظر ، فادهش من تولى أمرهم بحلمه وعلمه وثاقب رأيه وفرط دهائه ، وكان أبوه من قبل يعالج شؤون الناس ويتألفهم ويعرف ما يصلحهم ،

---

(١) تمرس وامترس بالشىء احتك به وتمرس بالنوائب والخصومات مارسها

وعنه أخذ شيئاً فى هذا المعنى ، والناشىء فى مثل هذه الأعمال يتحنك فى الادارة ويكون إماماً فى صناعته .

حافظ معاوية على أصول الرسول والراشدين فى الإدارة ، وما حاد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ودعا اليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سذاجة البداوة إلى بحبوحة الحضارة ، وعرف فوائد الشورى فما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة ، فهو يرى من الطبيعى أن يأخذ بآراء أشراف القوم ، وينزل على حكم وفود[1] البلاد ، وله ولآل بيته مجالس يعقدونها فى المسجد الجامع ، تدور أبحاثها على سياسة البلاد وحكمها فى الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والشيوخ والولايات ، وما كان الأمويون إلى الاستبداد بالرأى فى معظم حالاتهم ، ولا سيما فيما له مساس باصلاح الراعى والرعية .

كان معاوية يفض مشاكله بالحسنى يلين للناس ويشفع المجاملة بالاحسان ، يوليه كل نابٍ[2] نابه فى قومه ، سيد مسوّد فى أهله ، ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة واخراجها عن بيته بعد ان آلت اليه ، وما كان مع من يظلم رعاياه إلا شديداً ، ويستميل القلوب بالعطاء وبالإقناع أو بالإغضاء أو بالمجادلة بالتى هى أحسن ، وبلغ من سعة الصدر ووافر الحلم أن ضرب المثل بحلمه ، وكان إذا لم تنجع فى الناس وسائله اللينة ، يعمد بعد التماس كل حيلة إلى القوة . وهو القائل لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، وقيل وكيف ذاك ؟ قال : كنت إذا مدوها خليتها ، وإذا خلّوها مددتها . وقال : إنى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . ومن المستحيل كمّ[3] الأفواه أو تنطق بما يراد ، ورضا الناس

---

(١) خطط الشام للمؤلف (٢) الناب سيد القوم والنابه الفطن ذو النباهة (٣) كمّ البعير شد فمه بالكمام والكمام كالكمامة ما يكم به فم الحيوان لئلا يعض أو يأكل

غاية لا تدرك . فما دام الأمر يفض بالكلام ، ولا يقوم رجل جدّ يقلقل أمر الجماعة فالعالم أحرار فى أقوالهم ، ومتى لجأوا إلى القوة وتطالوا إلى الفتنة انكفأ عليهم بقوته ، وما برحت همته منذ تولى الحكم مصروفة إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء والمذهب ، وهو يستشير أرباب الرأى من أنصار دولته ، ولا يأتمن فى إدارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من آل بيته ، فإذا أتفق أن كان فلان ينزع إلى كذا أو يحب فلاناً من خصومه أو يغلظ فى بيان رأى يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبير أمر عنده .

فالسياسة هى كل ما حصر فيه معاوية وكده ، ومن أجل توطيد دعائمها لجأ إلى طرق فى الدعوة مؤثرة ، فجعل القصاص أو الوعاظ فى المساجد والمعسكرات يدعون لدولته و ينفرون من أعدائها ، وذلك لما رأى علياً [1] عند مُنْصَرَفه من صفين قنت فى الصلاة ودعا على من خالفه . فوقع فى نفس معاوية أن يعامل علياً بالمثل وأمر من يقص بعد الصبح و بعد المغرب أن يدعو له ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله فى عاصمته، فأحدث قصص الخاصة، عهد بها إلى رجال يهتمون بسلطانه. وظلّ قصاص العامة يجتمع اليهم النفر من الناس يعظونهم ويذكرونهم ، و يقصون عليهم ما يرق قلوبهم ، وكان القصاص إذا سلم الامام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحمده ومجده وصلى على نبيه . ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، وعلى أهل حربه وعلى الكفار كافة . ومن القصاص من كانوا يرفعون أيديهم فى قصصهم كما كان سُليم بن عتر قاص الجند زمان عمرو بن العاص .

ويقول من أمعنوا فى درس تاريخ معـــــاوية ان دعوى سنّه لعن

---

(١) تاريخ القضاة والولاة للكندى

على[1] عقبى كل خطبة[2] لم يقم عليها دليل ثابت يركن اليه ، وما من أثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم ، و بذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة . وجاب لعن الأمويين علياً من[3] البغضاء المستترة أكثر مما نالهم من الفائدة الحقيقية ، كما اخطأ معاوية باطلاق يد زياد فى سياسة القمع فى العراق على صورة هائلة تخالف ما كانت عليه سياسة معاوية من اللين ، وكان عليه أن يطبق بنفسه هذه السياسة مباشرة . وانتشر لعن الطالبيين للأمويين ولعن الأمويين للطالبيين فى كل مكان ، وقد لعن الأمويون علياً على منابرهم نحو الف شهر ، ولم تبطل هذه البدعة السيئة إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، استعاض عنها بآية : (ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا فى الايمان) الآية وقيل بل جعل مكان ذلك : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان و إيتاء ذى القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر) وقيل بل جعلهما جميعاً . وكان العلويون يقنتون عقب الصلوات يلعنون بنى أمية يشفون بذلك نفوسهم الثائرة ، من أجل دماء مطلولة ، وطوائل[4] طويلة ، وملك مستأثر به .

واقتفى معاوية فعل عمر بن الخطاب فى العلم بأخبار رجاله ورعيته فانتظم له أمره ، وكذا كان زياد بن أبيه وعبد الملك والحجاج . قال الجاحظ : ثم لم يكن بعد

---

(١) كان اللعن منذ القرن الأول من أيسر مايقابل به خصم خصمه وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرنا وانطواء ذلك البساط بما عليه جملة ، لم تشتف صدور شيعة على من النيل من الراشدين والأمويين والعباسيين حتى كاد لعنهم يعد من أركان المذهب ، وصار بعضهم ينعتون الشيخين بصنمى قريش ويقذفون بابنتيهما الطاهرتين ، وأصبح اللعن سنة من سنن العباسيين ، يلعنون كل من حارب سلطانهم ، وقد عزم المعتضد على سب معاوية على المنابر فحذره وزيره من اضطراب العامة وأمر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر لما استأثر بولاية مصر والشام فلعن ببغداد وسائر العراق ، ولعن ابن طولون المعتمد على المنابر في جميع أعماله بمصر ، وعمد الى هذا اللعن السياسى بعض خلفاء بنى العباس أما الاسلام فلم يجوز اللعن إلا على الكفار لاعلى التعيين . وقد وردت عدة آيات فى الكتاب العزيز فى لعن الظالمين والمنافقين إكباراً لفعلتهم فى خراب العمران ، وما يشاهد في بعض الكتب من لعن بعض أهل القبلة وغيرهم فانما هو من زيادات النساخ على ماحقق ذلك العارفون من العلماء (٢) الكامل للمبرد (٣) معلمة الاسلام . مادة أمية (٤) طل دمه هدره والطوائل جمع طائلة وهى العداوة والترة

هؤلاء أحد فى مثل هـذه السياسة حتى ملك المنصور . ونقل عن زياد أن رجلا كلمه فى حاجة وجعل يتعرف اليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال : أنا فلان بن فلان ، فتبسم زياد وقال له : أتتعرف الىَّ وأنا أعرف منك بنفسك ، والله إنى لاعرفك وأعرف أباك وامك وأعرف جَدك وجَدتك وأعرف هذا البرد الذى عليك وهو لفلان وقد أعارك إياه، فبهت الرجل وأُرعد[1] حتى كاد يغشى عليه .

قلنا إن معاوية كان يتخير عماله من كفاة أهل بيته أو من غيرهم من رجال دولته وأنصار دعوته . وقد انتهى إلى علمه أن ابن أُخته عبد الرحمن بن أم الحكم عامله على الكوفة قد أساء السيرة فى إمارته فعزله وأقصاه عن الحكم . وقيل إن سبب عزله أن عبد الله بن همّام السّلولى قال شعراً وكتبه فى رقاع ألقاها فى المسجد الجامع وهى :

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... فقد خرب السواد فلا سوادا
أرى العمال اقساء علينا ... بعاجل نفعهم ظلموا العبادا
فهل لك أن تَدارك ما لدينا ... وتدفع عن رعيتك الفسادا
وتعـــزل تابعاً أبداً هواه ... يخرب من بلادته البلادا
إذا ما قلت أقصر عن هواه ... تمادى فى ضلالته وزادا

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلا من بنى حرب ولاه الطائف ، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاّه مكة معها ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة . فكان إذا ولى الطائف رجلا هو قيل فى أبى جاد ، فإذا ولاه مكة قيل هو فى القرآن ، فاذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق[2] . وأوصى أحد أقاربه ممن استعمله فقال : لا تبيعن كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ،

---

(١) أرعد أخذته الرعدة (بفتح الراء وكسرها) وهى الاضطراب يكون من الفزع وغيره
(٢) تاريخ الطبرى

وا كتف فيما بينك و بين عدوك بالوفاء تخف عليك المؤنة وعلينا منك ، وافتح بابك للناس . وقال لآخر : إذا أعطيت عهداً فف به ، ولا تخرجن منك أمراً حتى تبرمه ، فاذا خرج فلا يردن عليك ، ولا تطمعن أحداً فى غير حقه ولا تؤيسن أحداً من حق له . قواعد وضعها معاوية لعماله وفيها شيء من الأساليب لـكف الناس بعضهم عن بعض ، وارضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولاتهم ، ليعتقدوا أنهم لا يكذبون وأنهم إذا قالوا فعلوا .

ومن يمن الدولة الأموية أن كانت لا تستعمل من العمال إلا من ثبتت كفاءته ونجدته فى تأييد سلطانها ، يمحضونها النصح ولا يغفلون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم ، واتخاذ الطرق المفضية إلى ما فيه راحتهم وهناؤهم ، و إذا تبرم أهل قطر بتدابير من وليهم ينقله الخليفة إلى قطر آخر يستعيض عنه أكفأ منه أو من كان على شاكلته أو ألين منه عريكة ، يريد عاملا حقيقياً للعمل لا عملاً لعامل يرزقه ، يتطلب عاملاً إذا عرضت له المعضلات أن يفتق له وجه الحيلة ما يتوجه له فيه وجه . أوعز زياد إلى والى خراسان أن يصطفى لمعاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم فى الناس ذهباً ولا فضة عملاً بكتاب ورد عليه من الخليفة . فكتب والى خراسان إلى زياد : بلغنى ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وإنى وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو أن السماء والأرض كانتا رتقاً[1] على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام . وقسم الفيء بين الناس من الذهب والفضة ، ولم ينفذ ما أمر به الخليفة من أمر يجحف بأرباب الاستحقاق فى العطاء من الجند والعمال، ذلك لأنه رأى فى ولايته مالم يره الخليفة ولا عامله الأكبر زياد . وهذا مما يشعر بما كان للعامل الأمين فى عهد معاوية من الحرية فيما يرتئيه لإصلاح عمله . والإدارة فى قطر قد لا تصلح لقطر آخر . والحاضر يرى ما لا يراه الغائب

(١) الرتق ضد الفتق والصدع وفى التنزيل كانتا رتقا ففتقناهما أى مصمتين مصمتتين لا فرجة بينهما

قال زياد ما غلبني أمير المؤمنين إلا في واحدة ، طلبت رجلاً فلجأ اليه وتحرّم[1] به فكتب اليه : إن هذا فساد لعملي إذا طلبت رجلا لجأ اليك وتحرّم بك . فكتب اليه معاوية: إنه لاينبغي أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا . . وأعظم بمثل هذا الدهاء ، وقديماً قالوا : الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة . وقال بعضهم : دهاة العرب وذوو الرأى والمكيدة معاوية وعمرو والمغيرة وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل بن ورقاء . وأربعة ممن ذكر دبروا ملك بني أُمية والآخران كانا من جماعة عليّ .

علمنا أن معاوية ما كان يستخدم الحسام ، إذا أجزأه[2] الكلام ، رمى أهل مصر بعمرو بن العاص لأنهم اشتركوا في مقتل عثمان ، كما اشتركت الكوفة والبصرة وبعض أهل المدينة ، ولما هلك ولّى مصر أخاه عتبة بن أبي سفيان[3] . وكان والي عمر على الطائف وصدقاتها ، وهو من بلغاء الخطباء ، قيل لم يكن في بني أمية أخطب منه . فاشتد على أهل مصر وطأمن من جماحهم ، وأدخل الرهبة على قلوبهم . ومن جملة ما خطبهم، وفيه نموذج من خطته وخطة أخيه ، قوله : يا أهل مصر خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتونه ، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها ، ولم ينفعه علمها ، وإني والله لا أُداوي أدواءكم بالسيف ، ولا أبلغ السيف ما كفاني السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرة ، ولا أُبطىء عن الأولى إن لم تصلحوا عن الأخرى ، ناجزاً[4] بناجز ، ومن حذّر كمن بشر ، فدعوا قال ويقول ، من قبل أن يقال فعل ويفعل ، فان هذا اليوم الذى ليس فيه عقاب ،

(١) يقال تحرمت بطعامك وبمجالسك أى حرم عليك منى بسببهما ما كان لك أخذه وتحرم فلان بفلان إذا عاشره ومالحه وتأكدت الحرمة بينهما (٢) أجزأ عنى أغنى (٣) أسد الغابة لابن الأثير (٤) الناجز والحيز الحاضر

ولا بعده عتاب . وخطب الناس بمصر عن مَوْجِدَة[١] فقال : ياحاملي ألأم آنف[٢] ركبت بين أعين ، إني إنما قلمت[٣] أظفارى عنكم ليلين مسّى لكم ، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادكم باقياً عليكم ، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان ، والتنقص للسلف ، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم ، فإن حسمت أدواؤكم وإلا فإن السيف من ورائكم ، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم ، ومن موعظة منا صمّت عنها آذانكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة ، اذ جدتم بالمعصية ، ولا أُويسكم من مراجعة الحسنى ، إن صرتم إلى التى هى أبر وأتقى .

واستخلف عتبة هذا عاملا له على أهل مصر ، وكانت له شدة ، فامتنع عليه بعض أهلها فكتب إلى عتبة . فقدمها فدخل المسجد ورقى المنبر وقال : يا أهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم ، لبعض الجور عليكم ، وقد وليكم من إن قال فعل ، فإن أبيتم درأ كم[٤] بيده ، فإن أبيتم درأ كم بسيفه ، ثم جاء فى الآخر ما أدرك فى الأول : إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه . فناداه المصريون من جانب المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلا عدلا » . تهديد نافع هدد به عتبة أهل مصر ليحملهم على الطاعة ، ويدفع عن البلاد غائلة الفتن بموعظته فى خطبته ، وأسلوب جميل فى الادارة من أنفع الطرق التى تنجع فيها الخطابة السياسية .

وكلما لمح عتبة شرارة الفتنة خطب القوم بما يطفئها من معين بلاغته . احتبست كتب معاوية حتى أرجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته . فصعد عتبة المنبر والكتاب بيده وقال : يا أهل مصر ، قد طالت معاتبتنا إياكم

---

(١) الموجدة الغضب (٢) الآنف جمع أنف ، وتجمع على آناف وانوف (٣) قلم الظفر قطع ما كان منه وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته (٤) درأه دفعه شديدا

بأطراف الرماح وظبات [1] السيوف حتى صرنا شجى فى لهواتكم [2] ما تسيغنا حلوقكم ، وأقذاء [3] فى أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، فحين اشتدت عرى الحق عليكم عقداً ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا . أرجفتم بالخليفة وأردتم توهين السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقدم عهدكم به حديث ، فاربحوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ، والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر لكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وان أسررتم شراً ، فانكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله نتوكل و به نستعين ا هـ .

وخطب عتبة فى الموسم فى سنة احدى وأربعين ، وعهد الناس حديث بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : « أيها الناس إنا قد ولينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسيء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق الى غيرنا ، فانها تنقطع دوننا ، ورب متمن حتفه فى أمنيته ، أقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم » وقد عرفنا بهذه النموذجات من الخطب كيف أخذ بنو أمية يصفّون البلاد من كدورات الفتنة . و بعتبة و بأمثاله أدخلوا الناس فى الطاعة ، وكأنوا ركبوا رؤوسهم [4] فى الغوائل وأوغلوا ، و بعتبة و بأمثاله من العمال الذين كانوا يعملون للجماعة بعقولهم وقلوبهم ، وهم على اقتناع من صحة دعواهم ، دفعوا الناس إلى الانقطاع الى أعمالهم واضطروهم إلى أن يتركوا الخوض فى سياسة الملك ، إلى من يحسن القيام عليها . ومن نظر فى سيرة أولئك العمال يأخذه العجب من عفتهم عن الأموال وتبلغهم بالقليل وانفاقهم بلا حساب لتأليف الشارد واستمالة الخصم المعاند ، فقد ذكر

---

(١) الظبة حد السيف أو السنان ونحوهما والجمع ظبات وظبى . (٢) واللهاة اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم وجمعها لهوات ولهيات ولهى . والشجى ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه . (٣) القذى ما يقع في العين وفي الشراب من تبنة وغيرها (٤) ركب رأسه مضى على وجهه بغير روية

المؤرخون ان عمرو بن العاص الذي ولي مصر مرتين وجعلها له معاوية في المرة الثانية طعمة بعد الاتفاق على مرافقها إذا هو ساعده على قتال عليّ. ان هذه الطعمة لم تعد على عمرو بثروة تذكر . وما اشتد عمرو على أهل مصر اشتداد عتبة لأن هذا كان في سن الكهولة وعمرو في سن الشيخوخة . والشيوخ في الادارة أقرب إلى الحنكة [1] والروية من الشباب على الأغلب . أما سائر عمال الدولة فكانوا بحسب الحال : على طريقة عتبة الناطقة أو على طريقة عمرو الصامتة .

كانت العراق بعد حوادث عليّ تغلي غليان المرجل [2] بالثوار، وتعج بأرباب الشغب، فرماهم معاوية بزياد بن أبي سفيان فخطب أهلها قائلا : «حرام عليّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً واحراقاً ، إياي ودلج [3] الليل ، فاني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وإياي ودعوى الجاهلية فاني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً وأحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً أغرقته ، ومن أحرق قوماً أحرقته ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا أيديكم وألسنتكم أكف عنكم ، وقد كانت بيني وبين أقوام أشياء قد جعلتها دَبْرَ أذني وتحت قدمي ، فمن كان محسناً فليزدد ، ومن كان مسيئاً فلينزع . اني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدي لي صفحته [4] فاذا فعل ذلك لم أناظره ، فأعينوا على أنفسكم وأتنفوا [5] أمركم» ومعنى هذا أن زياداً أعلن في العراق الادارة العرفية العسكرية ، وصرح بأنه يتناسى ما سبق للقوم من الخطيئات للدولة ولنفسه ، إذا أحسنوا السيرة ، وأنه ينوي افتتاح عهد جديد يفات فيه الناس ويستريح

---

(١) حنك وأحنك وتحنك الدهر الرجل جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكيما والحنكة الاسم من حنكه الدهر (٢) المرجل كمنبر القدر من الحجارة أو النحاس (٣) الدلج سير الليل كله أو في آخره . (٤) صفحة الرجل عرض صدره والصفحة الورقة والجنب ومن المجاز أبدى له صفحته كاشفه (٥) أتنف واستأنف الشيء أخذه فيه وابتدأه .

السلطان . ومع هذه الشدة البادية فى كلام[1] زياد كان يبعث إلى الجماعة منهم فيقول : ما أحسب الذى يمنعكم من إتيانى إلا الرُّجلة[2] فيقولون: أجل . فيحملهم ويقول : اغشونى الآن واسمُروا عنـدى . يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم من طرف خفى ، والبعد جفاء ، والعامل مضطر إلى أن يعلم البواطن والظواهر ، ولا ميدان لالتقاط الفوائد إلا فى المجالس الخاصة . قال عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرّة ، وأصلح العراق بأهل العراق ، وترك أهل الشام فى شامهم ، وجبى العراق مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف ا هـ .

كان زياد إذا ولّى رجلا قال له : خذ عهدك وسر إلى عملك ، واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك : إذا وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتك من موتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك ، وأحسنا على خيانتك أدبك فأوجعنا ظهرك ، وأثقلنا غُرمك ، وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً زدنا فى عملك ، ورفعنا لك ذكرك ، وأكثرنا مالك وأوطأنا[3] عقبَك . مثال من أعمـال عمال معاوية وما يريدون أن يكون عليه من يتصرفون للسلطان ليستقيم أمر البـلاد . وكان زياد يقول : استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتينى شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتينى عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتينى شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه . قال زياد لحاجبه: كيف تأذن للناس؟ قال على البيوتات ، ثم على الأنساب، ثم على الآداب ، قال فمن تؤخر؟ قال: من لا يعبأ الله بهم . قال : ومن هم . قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء فى الصيف وكسوة الصيف فى الشتاء . وقال

---

(١) الكامل للمبرد (٢) الرجلة المشى (٣) يقال فلان موطأ العقب أى كثير الاتباع

لحاجبه : وَلّيتك حجابتي وعزلتك عن أربع : هــذا المنادى إلى الله فى الصلاح والفلاح لا توقفه عني ، ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه ، فشرّ ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء فى تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد . قال العتبى : كان فى مجلس زياد مكتوب : « الشــدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ، المحسن يجازى باحسانه ، والمسىء يعاقب بإساءته ، الأعطيات فى أيامها ، لا احتجاب من طارق ولا صاحب ثغر . » وكان زياد يؤْثر الأعمال على الأقوال لعلمه بأنهـا تنادي على نفسها . فقد بنى بالبصرة أحياء ودوراً ومساجد وحفر أنهاراً وترعاً وكل ما بنى فيها أو صنع فإنه نسب إلى غيره[1] .

وزياد فى الواقع لم يزل بالمداراة من يوم كان أميراً على فارس ، وهى تضرم ناراً[2] حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعة والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب . وكان أهل فارس يقولون ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هــذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى . ولمـا قدم فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه وخوف قوماً وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضاً ، وصفَتْ له فارس فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً ، وفعل ذلك بكرمان . وقدم زياد العراق وهى جمرة تشتعل[3] فسل أحقادهم وداوى أدواءهم . وابنه عبد الله تولى العراق بعده ، وهو أول من عرف العرفاء ، ودعا الفقراء ، ونكب[4] المناكب ، وحصل الدواوين ، ومشى بين يديه بالعمد ووضع الـكراسى ، وعمل المقصورة ولبس الزيادى ، وربع الأرباع بالـكوفة وخمس الأخماس بالبصرة ، وأعطى فى يوم واحد المقاتلة والذرية

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه (٢) تاريخ الطبرى (٣) العقد الفريد لابن عبد ربه (٤) نكب على قومه ينكب نكابة ونكوباً إذا كان منكباً لهم يعتمدون عليه والمنكب عريف القوم أو عونهم

من أهل البصرة والكوفة و بلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً ومقاتلة البصره ثمانين ألفاً والذرية مائة ألف وعشرين ألفاً . وضبط زياد وابنه عبد الله العراق بأهل العراق . هكذا كانت أعمال العمال تسير على أجمل مثال .

كتب معاوية إلى سُلَيْم بن عتر قاضي مصر يأمره بالنظر فى الجراح والحكم فيها ، وكان الرجل إذا أصيب بجرح بذلك الجرح فقصته على عاقلة [(١)] الجارح ، ويرفعها إلى صاحب الديوان ، فاذا حضر العطاء اقتضى من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح وينجّم [(٢)] ذلك فى ثلاث سنين . والقاضى سُلَيْم هذا أول من سجل فى مصر سجلا بقضائه ، وذلك أنه اختصم إليه فى ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه ، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ثم سجله . وكان من سياسة معاوية أن يحمى عماله الصادقين ، وما كان يقيد من عماله ويدى [(٣)] من بيت المال .

وابتكر معاوية فى الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها [(٤)] ، منها أنه أول من وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التى يصلى فيها الخليفة منفرداً عن الناس ، وهو أول مسلم غزا فى البحر وأنشأ الأسطول فى صناعة صور وعكا وطرابلس، وغزا الروم، ولمافتح قبرس ورودس كان معه ١٧٠٠ سفينة، وأهم ما قام به تنظيم الجيش فضاعف عطاءه ووقت أوقاتاً لتناول أرزاق الجند، ووفق إلى استخدام أكبر رجال الادارة وأعظمهم : زياد ثم عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والضحاك بن قيس وأبو الاعور السلمى ومسلم بن عقبة و بسر بن أبى ارطاة

---

(١) العاقلة العصبة والأقارب من قبل الأب أى بنو العم الأدنون الذين يعطون دية قتل الخطأ (٢) نجم المال جعله نجوماً والنجم الوقت المضروب . ونجمت المال وزعته كأنك فرضته أن تدفعه عند طلوع كل نجم ثم أطلق النجم على وقته ثم على ما يقع فيه (٣) أقاد القاتل بالقتيل قتله به يقيده إقادة وأتدى فلان اندا. أخذ الدية ولم يثأر بقتيله وأصله إوتدى (٤) خطط الشام للمؤلف

١٨٦١٨

وحبيب بن سلمة . وكان إذا لامه أهله على كثرة بذله المال للعلويين والهاشميين أجابهم ان الحرب تستلزم نفقات أكثر من هذا العطاء

وهو أول من وضع البريد ، أحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد ، واتخذوا له بغالا بأكف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها . وهو الذى اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم . واستكتب عبد الله ابن أوس الغسانى سيد أهل الشام ، وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس ، فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ، فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم . ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من القبيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك ، وعلى هذا كانت الدولة تحصى السكان ، ولا يفوتها خبر من ينتقل فى أرجاء البلدان .

واستخدم معاوية النصارى فى مصالح الدولة وكان عمر يمتنع من استخدامهم إلا إذا أسلموا ، فعهد إلى سرجون بن منصور ، ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام ، بادارة أمواله . وكان منصور والد سرجون على المال فى الشام من عهد هرقل قبل الفتح ، ساعد المسلمين على قتال الروم بأن أبى أن يمسك الرجال بالمال [1] قائلا ان الملك أى هرقل غير محتاج إلى هذا العسكر العظيم ، لأنه يحتاج إلى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم ، قالوا انه أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم ، فيتفرق الجند ويسلم المدينة إلى العرب .

كان معاوية يحب الانتفاع من كل قوة تستخدم فى قيام الدولة وتعين على انتظام الجماعة . ولما رحل جبلة به الأيهم [2] إلى الروم وارتد عن إسلامه دعاه معاوية بن أبى سفيان إلى الرجوع إلى الإسلام ووعده إقطاع الغوطة بأسره . يريد

---

(١) خطط الشام للمؤلف (٢) الأغانى للاصفهانى

بذلك تلافى خطأ عمر بن الخطاب يوم أبى إلا إقامة الحد على جبلة فكان من ذلك فراره إلى الروم . و « كان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام كما كان آل نصر عمال الأكاسرة على عرب العراق . »

و باتخاذ دمشق دار الخلافة بعد أن كانت دار إمارة الشام وحدها ، انتقلت سياسة الملك من المدينة فكثر سكان الفيحاء من العرب ، يقصدها طلاب العمل وغيرهم من الأقطار ، ويختص الخليفة أهل الشام بعنايته ، ويستعمل الصالحين من أهل الذمة فى أعماله الادارية . ورأى النصارى أكثرية فى الشام ، فنقل إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة ، وأنزل بعضهم أنطاكية ، وأصل الزط من السند يغلب السواد على سحناتهم ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور ونقل من أساورة [1] البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية جماعة . هذا عدا القبائل العربية التى أسكنها الشام فمزجهم بأهلها الأصليين حتى يكون آمناً فى دار ملكه . و بعمله هذا أصبح الساحل الشامى غاصاً بالعجم والعرب ، وذلك تفادياً من أن يستأثر النصارى وحدهم بمفتاح البلاد من البحر ، وفى مزج العرب بالفرس بسكان البلاد الأصليين يصبح كل عنصر رقيباً على العنصر الآخر ومنافساً له . ولما صالح صاحب قبرص خيّر أهلها بين أن يسكنوا الشام أو يرتحلوا إلى بلاد الروم . ولئن غدت دمشق قبلة الاسلام ودار الملك فقد ظلت المدينة عاصمة الفقه والدين مدة خلافته وخلافة من خلفوه ، وما جعل مقره فى الشام إلا لأن أهلها أحبوه لما بلوه ، وكفى بعهد إمارته عليهم أن يعرفهم ويعرفوه ، ويطبع طباعهم بطابع الطاعة والتزام جانب الجماعة . وخصلة أخرى أيضاً وهى أن دمشق متوسطة بين البلاد الاسلامية أكثر من الحجاز ، وفى الشام من

---

(١) الاساورة قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديما كالأحامرة بالكوفة قيل أصل الأساورة أساوير والتاء عوض عن الياء كالزناديق والزنادقة

الخيرات الطبيعية والأعمال الصناعية ما يمتار منه الجيش ويرتفق ، وما يترفه به العلية من رجال الدولة ويقوون ، ونحن على صواب إذا قلنا إن دمشق أصبحت فى عهد معاوية ثم فى عهد الخلفاء مدرسة يتخرج فيها القواد والأمراء والجند .

ومن أهم ما قام به معاوية للتأثير فى الرأى العام حسن معرفته باستخدام الشعراء[1] وكان الشعراء كأرباب الصحافة فى ذاك العصر ، فانتفع بهم لمصلحة الدولة ، وتكوين الوطنية العربية ، فأبعد الشعر عن الهجو المألوف بين القبائل وجعله أداة عمل صالحة .

ولم يغفل معاوية فى وقت من الأوقات عن تعهد الزراعة وعُنى بها فى الحجاز عناية خاصة ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، وأقام أسداداً للانتفاع بالمياه ، وسرت أُسرته ومعاصروه على طريقته ، فشهدت الحجاز قرناً من الارتقاء لم تره من بعد . هذا مع أن طبيعة الحجاز قاسية غير ملائمة ، ولكن الخليفة العاقل ما أحب لأهل الحجاز أن يعيشوا من العطايا والصدقات وموسم الحج ، لأنها موارد غير طبيعية فى المعاش ، ومذاهب فى الاتكال لا يؤمن مع زوالها عيش ونعمة .

وصالحت الرومُ معاوية على أن يؤدى اليهم مالاً وارتهن معاوية منهم رهناءَ فوضعهم ببعلبك ثم ان الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا وفاء بغدر خير من غدر بغدر .

كان معاوية فى الابداع بتأسيس دولة الأُمويين كعمر بن الخطاب فى إبداعه بإنشاء دولة الراشدين ، ومع هذا فقد قيل إن أحد الصلحاء سئل أيام معاوية كيف تركت الناس قال : تركتهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهى . كأنه يريد أن تكون إدارة الملك على عهد ابن أبى سفيان ، كما كانت على عهد عمر بن الخطاب ، وفاته أن لكل عصر طريقته ورجاله . والغالب أن البعيد لا يقدّر الأمور بقدرها كالقريب ، وأرباب الصلاح يتوهمون أن العدل المطلق يستفيض فى الناس بأمر

---

(١) معلمة الاسلام . مادة معاوية

من الخليفة أو بعناية عمــاله وحدهم ، وأن كل خير لا يأتى إلا من السلطان ، أما المحــكومون فليس لهم كبير أثر فى إفاضة العــدل فى العالم ولا تلحق بهم تبعة ، والنقد سهل والصعوبة فى الابداع .

قال المسعودى — وهو مشهور بتشدده فى تشيعه — : وأخبار معاوية وسياساته وما أوسع الناس من أخلاقه ، وما أفاض عليهم من بره واعطائه وشملهم من إحسانه ، ممــا اجتذب به القلوب واسترعى به النفوس حتى آثروه على الأهل والقرابات . وقد كان ائتم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك بن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه ، ولا اتقانه للسياسة ، ولا التأنى للأمور ، ولا مداراته للناس على منازلهم ، ورفقه بهم ، ورفعه لهم على طبقاتهم .

ادارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك

مضت أيام معاوية الطويلة : عشرون سنة أميراً وعشرون أخرى خليفة ، وأوصى ابنه يزيد عند موته بقوله : أُنظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده ، وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل عامل فى كل يوم فاعزله عنهم ؛ فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى علام أنت عليــه منهم . ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فإن رابك من عدو ريب فارمه بهم ، فان أَظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم لا يقيموا فى غير بلادهم ، فيتأدبوا بغير آدابهم . وجه نصيحته إلى قلب المملكة الحجاز والعراق والشام ، لأنها إذا استقامت لا يخشى على الأطراف .

وقد كان معاوية عُنى فى آخر أمره بتخريج يزيد ابنه وولى عهده يستشيره فى المسائل الطارئة ويأخذ برأيه أحياناً ويبعث همتــه على العمل ، ليتولى الأمر عن كفاءة ، وقد علمه أنساب الناس والنجوم والعربية ، أقام أســتاذاً له فى ذلك

دغفل بن حنظلة الشيبانى ، ومشى يزيد فى إدارته على أثر أبيه ، فكان لا يضن بالمال مهما عظم فى سبيل الخلافة . وفد عليه عبد الله بن جعفر فقال له : كم كان عطاؤك . فقال له : ألف ألف . قال : قد أضعفناها لك . قال : فداك أبى وأمى ، وما قلتها لأحد قبلك . قال : قد أضعفناها لك ثانية . فقيل ليزيد : أتعطى رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف . فقال : ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده إلا عارية ، وما زال يزيد يزيد فى إعطائه لمنزلته ، ولأنه يريد أن يتألف بواسطته أهل المدينة ، ويرفع يد ابن الزبير عنها وعن دعوى الخلافة .

وما أثر عن يزيد انه غير شيئاً من أصول إدارة أبيه لاستغراق حرب الحسين ابن على فى العراق وعبد الله بن الزبير فى الحجاز معظم أوقاته ، أما ابنه وخليفته معاوية الصغير أو الثانى فكانت خلافته أياماً وما أراد أن يدخل فى شىء من مهامها .

كان مروان كمعاوية آية فى عقله وسياسته وتدبيره ، درس الادارة زمناً طويلا فى الحجاز ، وعرف ما يفسد الناس ويصلحهم ، وما يهيجهم ويسكنهم ، ولكن أمره لم يطل كثيراً ، وتستبين محاسنه فى تدبيره الملك مما وقع لابنه عبد العزيز معه ؛ فان مروان لما ولى الخلافة جاء إلى مصر فأقام بها شهرين ثم جعل ولايتها إلى ابنه عبد العزيز؛ جعل إليه صلاتها وخراجها فقال عبد العزيز [1] : يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى؟ . فقال مروان : يا بُنى عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره [2] وينقاد قومه إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عليك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى بيتك .

(١) تاريخ الولاة والقضاة للكندى (٢) العين الجاسوس

هكذا دبر مروان ابنه ليخرّجه فى الادارة ويعلمه حكم الناس ، جعل له موسى ابن نصير وزيراً ، وهو ما هو بعلمه وعقله وحسن سياسته ، وفارق موسى أميره عبد العزيز بعد حين ذاهباً إلى إفريقية والمغرب ، فقضى على البربر والرومان ، ثم فتح الأندلس . أما بشر بن مروان مؤنس أخيه يوم تولى مصر ، فقد تقلد البصرة والكوفة فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان ، ليس على بابه حجاب ولا ستر ، ولابن عبدل فى بشر بن مروان :

ولو شاء بشرٌ كان من دون بابه طماطمُ سـودٌ أو صقالبـة حمر
ولـكن بشراً أسهل البـاب للتى يكون لبشر عنـدها الحمد والأجر
بعيـدُ مَراد العين ما ردّ طرفَه حذار الغواشى بابُ دار ولا ستر

استعمل عبد الملك بشراً وأمره بالشدة والغلظة على أهل المعصية[1] وباللين على أهل الطاعة وخلف معه أربعة آلاف من أهل الشام منهم رَوْح بن زنباع ورجاء بن حَيْوة الكندى ، وهما من أمثل رجال بنى أُمية وأعلمهم وأسوسهم . وكان من سياسة بشر أو من سياسة دولته عامة أنه إذا ضرب البعث[2] على أحد من جنده ثم وجده قد أخل بمركزه أقامه على كرسى ثم سمر يديه فى الحائط ثم انتزع الكرسى من تحت رجليه فلا يزال يتخبط حتى يموت . وبهذه الشدة على المجندين ما كانت تحدث أحداً نفسه بالهزيمة من الخدمة ، وكان جيش أمية أطوع جيش عربى . ولا يستغرب أحد هذه الشدة فجزاء الفار من الجندية فى يومنا هذا القتل .

رأينا عبد العزيز بن مروان أمير مصر وما كان من نصيحة أبيه له فى سياسة الرؤساء ليسلس له قياد المرؤوسين ، وكيف لقنه أبوه أقرب الطرق إلى استمالة القلوب ، وكان عند حسن ظنه به ، فجاء عبد العزيز نابغة فى إدارته عمرت مصر فى أيامه

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢) البعث الجيش أو كل قوم بعثوا والجمع بعث بضمتين وبعوث

عمراناً ليس مثله ، ومما بنى فى حلوان الدور والمساجد وغيرها أحسن[1] عمارة وأحكمها، وغرس نخلها وكرمها ، وكان له ألف جفنة[2] كل يوم تنصب حول داره ومائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر .

ولى عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها اليه ، فلم يوجد له مال ناض[3] يوم موته إلا سبعة آلاف دينار ، وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، على حين لما مات عبد الله بن عبد الملك بن مروان وكان عاملاً على مصر ترك ثمانين مداً من الذهب . وتقدم اليه أبوه أن يعفّى آثار عمه عبد العزيز لمكانه من ولاية العهد فاستبدل بالعمال عمالاً و بالأصحاب أصحاباً ، ذلك لأن عبد العزيز لم يرض أن ينزل عن ولاية العهد لابن أخيه فى حياته ، وعبد العزيز هو والد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى العادل .

وجرى عبد الملك بن مروان فى إدارة الملك على طريقة والده وطريقة معاوية فى تخريج آله وعماله فى سياسة البلاد ، فزادت الأمور استقراراً ، والأعمال تسلسلا ، والعمال رغبة ورهبة ، والرعايا أمناً ودعة . وكثيراً ما كان يعمد إلى الشدة لا تأخذه رأفة بخصوم دولته . قتل مصعب بن الزبير وكان أحب الناس إليه وأشدهم له إلفاً ومودة وقال فى الاعتذار عن عمله : « ولكن الملك عقيم[4] » ولقد قيل له أن يأخذ بسيرة عثمان فقال : « وما خالف عثمان عمر فى شىء من سيرته إلا باللين فان عثمان لان لهم حتى رُكب ، ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منه ما نالوا » . وقال : إنى رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة أى باللين أُغير على الناس فى بيوتهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالى أن يسير فى كل زمان بما يصلحه .

---

(١) الولاة والقضاة للكندى (٢) الجفنة القصعة الكبرى (٣) الناض الدرهم والدينار (٤) الملك عقيم أى لا ينفع فيه نسب لأنه يقتل في طلبه الأب والولد والأخ والعم سمى به لقطع صلة الرحم بالتزاحم عليه

وهذا هو السر العظيم فى نجاح الممالك فى كل عصر وأمة . وقال عبد الملك يوماً : أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ولا تسيرون فينا ولا فى أنفسكم بسيرة رعية أبى بكر وعمر ، نسأل الله أن يعين كلاً على كل . وسأله ابنه الوليد يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع (١) .

ولى عبد الملك العراقين الحجاج بن يوسف الثقفى فقال : دلونى على رجل أوليه ، فقيل له أى الرجال تريد؟ قال: أريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، لا يحنق فى الحق على مرة ، يهون عليه سؤال الأشراف فى الشفاعة . فقيل عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمى فأرسل إليه فاستعمله فقال له : لست أقبلها إلا أن تكفينى عمالك وولدك وحاشيتك . فقال الحجاج: يا غلام ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت الذمة منه . قال الشعبى : فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله كان لا يحبس إلا فى دين ، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم وضع منقبته فى بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً ، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة وأظهر سلاحاً قطع يده ، فربما أقام أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد، فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .

خطب الحجاج أهل العراق : « إنى رأيت آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصى ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : أنْجُ سعد فقد هلك سُعَيْد ، أو تستقيم لى قناتكم » ولما اتصل بعبد الملك إسراف الحجاج فى (٢) القتل وأنه أعطى أصحابه الأموال كتب إليه : أما بعد فقد بلغنى سرفك فى الدماء ، وتبذيرك الأموال ، وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس ، وقد

---

(١) الصنائع جمع صنيعة أى الاحسان والصنائع المصطنعون (٢) الاشراف لابن أبى الدنيا

حكمت عليك فى القتل بالقود ، وفى الخطأ بالدية ، وان ترد الأموال الى أصحابها فانما المال مال الله ونحن خزانه ، وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا . كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه فى أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً » .

وكان الحجاج يأخذ بأيدى العلماء ممن لا يتدخلون فى سياسته ولا يشاركونه فى سلطانه ، ويضع فى كل يوم [١] ألف خوان فى رمضان وفى سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر ، وكان يحمل فى محفة ويدار به على موائده ويتفقدها ، فاذا رأى أرزة ليس عليها سكر وسعى الخباز ليجيء بسكرها فابطأ حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر بضربه مائتى سوط ، فكانوا بعد ذلك لا يمشون إلا متأبطى، خرائط السكر . وكان يوسف بن عمر والى العراق فى أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خوان ، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة ، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره ، فكان عند الناس أحمد .

واشتهر عهد الحجاج[٢] باصلاح الموازين والخراج والزراعة فهو رجل الدولة باصلاحاته ، ولم يكن مصلحاً فحسب بل كان مصلحاً وموجداً ، ومن إيجاده وضع الحركات والاعجام فى المصاحف لئلا يلتبس شيء من الآيات على من لا يَعْلم القرآن . واتخذ [٣] الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ، ثم أذن للتجار وغيرهم فى أن تضرب لهم الأوراق واستغلها من فصول ما كان يؤخذ من فضول الأجرة للصناع والطباعين وختم أيدى الطباعين

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢) معلمة الاسلام — مادة الحجاج (٣) فتوح البلدان للبلاذرى

حرّض عبد الملك ابنه على المشاورة فى قضاء الأمور لما وسد إليه إمارة مصر قائلاً له : أنظر أى بنى إلى أهل عملك فان كان لهم عندك حق عدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فانهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم فان لم يستبن لك فاكتب إلىّ يأتك رأيي فيه إن شاء الله ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سَوْرة[1] الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون ، وأنت ساكن الغضب مطفأ الجمرة ، فان أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة فيكونوا أصحابك وجلساءك ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك » وهذا من أجمل أساليب الادارة وسياسة الناس : لا تأخير فى الفصل بينهم ، ولا كذب فى الوعود والمواعيد ، واستشارة العارفين والعالمين ، وجعلهم وحدهم بطانة وسماراً وجلساء ، ولا إسراع فى إنزال العقوبات حتى يذهب الغضب .

وبلغ عبد الملك أن بعض كتابه قبل هدية فقال له : والله إن كنت قبلت هدية لا تنوى مكافأة المهدى لها إنك لئيم دنىء ، وإن كنت قبلتها تستكفى رجلا لم تكن تستكفيه لولاها إنك حائن ، وإن كنت نويت تعويض المهدى عن هديته وأن لا تخون له أمانة ولا تثلم له ديناً فلقد قبلت ما بسط عليك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر محاوريك ، وسلبك هيبة سلطانك ، ثم صرفه عن عمله . ذلك لأن غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على أصول نقية من الشوائب ، والرشوة من من طريق الهدايا تذهب بها حقوق أحد المتنازعين أو حقوقهما معاً . وكان

---

(١) سورة الغضب شدته

عبد الملك بن رفاعة أمير مصر (٩٦) يقول : إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق .

وأدخل عبد الملك أموراً جديدة فى الادارة وهو أول من أفرد للظلامات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر ، وكان إذا قعد للقضاء أقيم على رأسه بالسيوف وينشد قول سعيد بن عريض بن عادياء من يهود الحجاز :

إنا إذا مالت دواعى الهوى   وأنصت الساكت للقائل

واصطرع الناس بألبابهم   نقضى بحكم عادل فاضل

لا نجعل الباطل حقاً ولا   نلطّ[1] دون الحق بالباطل

نخاف أن تسفه أحلامنا   فنخمل الدهرَ مع الخامل

وزاد عبد الملك الجزية ، وأقل الجزية دينار وأكثرها مفوض إلى الاجتهاد ، استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة — وكانت ديناراً على كل جمجمة ومدين قمحاً ؛ وقسطين زيتاً وقسطين خلاً ، وضعها عليهم عياض بن غَنم فى الفتح — فأحصى عبد الملك الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسبه العامل سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وأُدُمه[2] وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها فوجد الذى يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة ، ثم حمل الأموال على قدر قربها وبعدها[3] ، وهذا خلا نوائب الرعية وهو ما يضر به عليهم الامام من الحوائج كاصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم .

وفى أيامه نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية فكان ذلك من أهم الأسس التى أقيمت فى بناء القومية العربية فى الممالك

---

(١) لط بالأمر لزمه ولط عليه الخبر ستره (٢) الأدم ما يؤتدم به وائتدم أكل الخبز مع الادام وإدام الطعام هو ما يجعل مع الخبز فيطيبه (٣) الخراج لأبى يوسف

الاسلامية كافة ، وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم ، فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها . وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخشنى من أهل الأردن أول مسلم ولى الدواوين كلها ، وكان يتولاها القبط والروم والعجم ، وكان بالبصرة والكوفة[1] ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب العربية ، وديوانان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية ، فحول ديوان العراق إلى العربية أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصرى ، قدمه لذلك الحجاج فكان كتاب العراقين كلهم غلمانه وتلاميذه[2] ونقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر فى خلافة الوليد ابن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية ، وجعل على الديوان ابن يربوع الفزارى من أهل حمص ، وتأخرت بعض البلاد فى هذا التغيير من رسم الادارة ، فان أول من كتب بالعربية فى ديوان اصبهان سعد بن إياس كاتب عاصم بن يونس عامل أبى مسلم صاحب الدعوة . وهو أول من أخذ الناس بتعلم القرآن من أهل اصبهان، يقال إنه استقرأ المسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلا لم يكن فيهم من يحفظ القرآن إلا ثلاثة ، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه .

وعبد الملك أول من كتب على الدينار (قل هو الله أحد) وذكر النبى فى الطوامير[3] ، وكانت الدنانير رومية تدخل من بلاد الروم ، والدراهم كسروية وحميرية[4] قليلة ، فهو أول من ضرب الدراهم المنقوشة ، وكان على خاتمه قبيصة ابن ذؤيب والبريد اليه ، يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها[5] . ومن أهم أعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة ، ومن أعماله أن يحجب الناس ويحافظ على الخليفة ، وكان الأمويون لا يأذن خلفاؤهم بالدخول عليهم إلا

---

(١) أدب الكتاب للصولي (٢) خطط المقريزى (٣) الطومار الصحيفة والجمع طوامير (٤) الأحكام السلطانية للماوردى (٥) طبقات ابن سعد

بالترتيب الذى عينوه . والولاة ينزلون فى المعسكر تحيط بهم الجند لتسهل المحافظة عليهم فلا يغتالهم مغتال . وقد يتنقلون فى عمالاتهم ، فزياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وفى البصرة مثلها [١]، وهو أول من سير بين يديه بالحراب والعُمُد واتخذ الحراس خمسمائة لا يفارقون مكانه . وكانت تقرأ عهود القضاة الذين نصبوا حديثاً فى المسجد الجامع أولا ، ثم يقصدون دار الأمير فيقرأ أمامه عهد القاضى . والقضاة يقضون فى الجوامع ، وكان الجامع فى الاسلام هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ما له علاقة بالسلطان والسكان .

أما الولاة فيديرون ولاياتهم فى المعسكرات ، والمعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة . و « ليس [٢] من مدينة عظيمة إلا و بها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » وإذا رحل الجيش واضطر إلى النزول فى القرى لشدة البرد فى الشتاء يؤويه أهلها ثلاثة أيام ويطعمونه مما يُطعَمون .

كان جيش عبد الملك ومن بعده من العنصر العربى ، ولما توسع الأمويون فى فتوحهم شمالى إفريقية وفتحوا الأندلس جندوا أناساً من البربر ومزجوهم بجند العرب . بعث عبد الملك ابنه مسلمة لغزو الروم فقدم الناس من جميع الآفاق ، وكان فيهم من العرب كندة وغسان وتميم وهمدان وربيعة وطى ولخم وجذام وقيس وجماعة بنى أمية وقريش ورؤساء أهل الحجاز والجزيرة والشام ومصر . ثم عرض الناس فانتخب منهم ثلاثين ألفاً من أهل البأس والنجدة ، واتخذ من الخيل والفرسان ثلاثين ألفاً ، وولى على رؤساء كل طائفة واحداً منهم . ويقول البلاذرى [٣] إن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه نساءه وحمل ناس ممن معه نساءهم . وكانت بنو أمية تفعل ذلك إرادة الجد فى القتال للغيرة على الحرم . هكذا كان

(١) تاريخ أبي الفداء (٢) المسالك والممالك لابن حوقل (٣) فتوح البلدان للبلاذرى

ترتيب جيوشهم فى هذا الدور . وكانت أمور الحرب بيد الولاة فى الولايات تقوم[١] بهـا القبائل المهاجرة إليها ، أما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن أجناد الشام فكان خاصاً بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية ، و بفضل هـذه القوى المخلصة للأمويين ظفروا فى الحرب الأهلية سنة ٦٤

وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزياد والحجاج فى أخذ نفسه بالتطلع إلى استعلام بواطن أمور الرعايا ، وكذلك كان فى التطلع إلى أخبار الروم وغيرهم ممن كانوا يودون أبداً أن يكيدوا للمسلمين . ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين فى سنة سبعين فصالحهم عبد الملك على أن يؤدى إلى ملكهم فى كل جمعة ألف دينار خوفاً منه على المسلمين ، وطمع الروم لافتراق الكلمة وقتال الأمة على الملك[٢] لما دعا عمرو ابن سعيد بن العاص الأشدق إلى نفسه بالخلافة ، واستولى على دمشق لما سار عبد الملك بجيوشه إلى العراق ، ليملكها من ابن الزبير . فعمل عبد الملك فى اتقاء بأس الروم كما عمل معاوية لما شُغل بقتال على ، فصالح الروم على مال يؤديه إليهم ، وليس من الحزم فى دولة أن تحارب حربين داخلية وخارجية فى وقت واحد . وفعل عبد الملك مثل ذلك فى مداراة الروم فجدد الهدنة مع ملكهم على أن يدفع لهم كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً ويقاسم ملكهم على خراج قبرص و إرمينية على شرط أن يخرج اللبنانيون من حبلهم وكانوا عصوا عليه واتفقوا مع الروم ، وآلى اللبنانيون بعد ذلك أن لا يتعرضوا للعرب ، فلقب اللبنانيون بالمردة لأنهم عصوا أمر ملك الروم . وما كان عبد الملك إلا محافظاً على اعتداله لا يدهش لما يحل به من المُظِعات[٣] يحل مسائل الدولة بروية وتعقل وصبر .

ويعدّ عبد الملك فى العلماء كما يعد من أكبر الساسة . قال الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً ، وعابدها قبل أن يستخلف

---

(١) معلمة الاسلام — مادة أمية (٢) دول الاسلام للذهبى (٣) المظعات الأمور الشديدة الشنيعة

ورعاً وزهداً . وهو أول من لقب من الخلفاء بلقب الموفق لأمر الله ثم لقب الوليد المنتقم[١] لأمر الله . ولم يشتهرا بهذين اللقبين كثيراً[٢] . وأوصى عبد الملك أولاده أن يعطف الكبير منهم على الصغير ، وأن يعرف الصغير حق الكبير ، وحذّرهم البغي والتحاسد ، وأوصاهم بأخيهم مسلمة وأن يصدروا عن رأيه ، وأن يكرموا الحجاج فانه هو الذى وطأ لهم هذا الأمر . أوصى به ولطالما تبرم من أعماله فى حياته . والحجاج وزياد وعتبة بن أبي سفيان وخالد القسرى الذى تولى العراق زمناً طويلاً ، وقتيبة بن مسلم أمير خراسان وفاتح خوارزم وسمرقند وبخارى الذى دخل إلى ملك الصين وضرب عليه الجزية وأمثالهم ، كانوا فى بنى أمية « قطب الملك الذى عليه مدار السياسة ، ومعادن التدبير وينابيع البلاغة وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها ، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها ، واستفتحوا مغالقها حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ، ونفذت عزائم السلطان[٣] » .

ادارة الوليد وسليمان

وتولى الوليد بن عبد الملك الخلافة فسار على سيرة أبيه وراعى إخوته وحث أولاده على اصطناع المعروف ، وكان غرامه بعمران البلاد وإقامة المصانع والجوامع واعتقاد[٤] الضياع فقلده رعاياه فى ذلك ، فكان الناس فى أيامه يخوضون فى وصف الأبنية ويحرصون على التشييد والتأسيس ويولعون بالضياع والعمارات[٥] لوفرة الثروة فى أيدى الناس . وقد كتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك أن بيوت الأموال

---

(١) محاضرات الراغب الأصفهاني (٢) اصطنع بعضهم ألقاباً للخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى دولة بنى العباس فرد الناقدون هذه الألقاب المفتعلة (٣) العقد الفريد لابن عبد ربه (٤) اعتقد الضياع اقتناها واعتقد مالا جمعه (٥) لطائف المعارف للثعالبى

قد ضاقت من مال الخمس فكتب اليهم أن يبنوا المساجد . وأجرى الوليد على القراء وقوّام المساجد الأرزاق ، وكذلك على العميان وأصحاب العاهات والمجذّمين ، وأخدم كل واحد منهم خادما ، وكان يهب أكياس الدراهم تفرق فى الصالحين ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد الناس جميعاً فى العطاء عشرة عشرة ، وذلك للشاميين خاصة ، وزاد أهل بيته فى جوائزهم الضعف . وفى مئات الألوف من الدنانير التى أنفقها على إقامة الجوامع والمصانع ، وما كان فى خزائنه من الأموال التى تكفى الدولة خمس عشرة سنة مقنع لمن أراد أن يتصور الأموال التى احتجنها هو ومن قبله من الخلفاء استعداداً للطوارىء .

ودخلت الدولة فى حالة استقرار ونظام فى الادارة وانتهى[1] تعريب المملكة والادارة ، وأخذت الوظائف الكبرى من النصارى ونُحى آل سرجون الدمشقيون عن إدارة الأموال وبلغت الفتوحات أقصى حدودها . وظهرت أبهة الملك والسلطان، ومالت الدولة إلى إقامة الأعمال العظيمة على الدهر ، تخليداً للذكر وإشادة بالفخر ، والوليد هو الذى جوّد القراطيس وجلل[2] الخطوط وفخم المكاتبات وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فإنهما جريا فى المكاتبات على طريقة السلف . ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطناب . وكان الوليد موفقاً فى فتوحه فى الشرق والغرب بفضل قواده وولاته ممن كان يعرف لهم أقدارهم ، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر فى عمران البلاد . ومن خلق الوليد أنه كان سمحاً يسره أن يرى لعماله شيئاً من الرفاهية . كتب اليه الحجاج إنه أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار فإن يكن أصابها من حلها فرحمه الله ، وإن تكن من

---

(١) معلمة الاسلام . الوليد (٢) جلل عظم

خيانة فلا رحمه الله . فكتب اليه الوليد إن محمد بن يوسف أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له ، وأمره أن يترحم عليه .

وتوسع الأمويون فى هذه الحقبة فى إفاضة الأموال على عمالهم ، وكان القاضى بمصر مثلا يرزق الف دينار فى السنة . كان ابن حجيرة الأكبر فى مصر (٦٩—٨٣) على القضاء والقصص[1] و بيت المال ، فكان رزقه من القضاء مائتى دينار ، وفى القصص مائتى دينار ، ورزقه فى بيت المال مائتى دينار وعطاؤه مائتى دينار وجائزته مائتى دينار . على أن العادة الجارية عندهم أن لا يعطى العامل سوى رزق واحد . ولم يكن أحد من بنى مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو ، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلا . وكانوا يصيرون أنفسهم فى أعوان الديوان فى بعض ما يجوز لهم المقام به ويوضع به الغزو عنهم . أما الحجاج فكان يشتد فى تجنيد الناس لأنه يقظ حذر دائماً ، فكان لا يدع قرشياً ولا رجلا من بيوتات العرب إلا أخرجه «وضرب[2] البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان ، فكانت المرأة تجىء الى ابنها وقد جرّد فتضمه اليها وتقول له : بأبى ، جزعا عليه ، فسمى ذلك الجيش جيش بأبى » وكان تجريد الشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب أجسامهم فينبذ السقيم ويجند السليم . وخطب الحجاج لما جاء والياً على العراق ، وقد بعث بشر بن مروان المهلبَ إلى الحرورية ومما قال : وإياى وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيم أنتم ، والله لتستقيمن على طريق الحق أو لادعن لكل رجل شغلاً فى جسده ، ومن وجدته بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه ، وانتهبت ماله وهدمت منزله . فشمر الناس بالخروج الى المهلب . ولا يمنع بعث البعوث عند الشدائد من وجود جيوش عند الخليفة وعماله فى الأقطار تشبه الجيش الدائم تحت السلاح يتيسر حشده عند الحاجة بقليل من العناية .

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى (٢) الأغانى للاصفهانى

وكأن سياسة الدولة فى هذا العهد كانت صورة من سياسة الحجاج فقد كتب إليه الوليد يأمره أن يكتب إليه بسيرته فكتب إليه : إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى ، وأدنيت السيد المطاع فى قومه . ووليت الحرب الحازم فى أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسماً أعطيته حظاً من لطيف عنايتى ونظرى ، وصرفت السيف إلى النطِّف [1] المسىء ، والثواب إلى المحسن البرىء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب اهـ .

ولما أفضى الأمر إلى سليمان بن عبد الملك أقر عمال من كانوا قبله على أعمالهم ، وجلس فى صحن المسجد وقد بسطت لديه البسط والنمارق [2] عليها ، وصفت الكراسى ، وأذن للناس بالجلوس ، وإلى جانبه الأموال والكساوى وآنية الذهب والفضة ، فيدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعمن قدموا من عنده ، فيأمر سليمان بما يصلحهم ويرضيهم ، فما يطلب أحد شيئاً إلا نوّله مرامه ، ورد المظالم وعزل عمال الحجاج وأخرج من كان فى سجنه فى العراق وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم .

ادارة عمر بن عبد العزيز

عمل الخلفاء السبعة الأول من الأمويين فى إدارة الملك الاسلامى بما أوحاه إليه عقلهم وعملهم ، فكان الصحابة منهم والتابعون على مثال خالفوا فيه مرغمين بعض طريقة الراشدين ، لأن علمهم بالناس زاد بما فتح الله عليهم من البلاد ، ولأنه نشأت أحداث حديثة ، ودخلت فى الاسلام عناصر أخرى . وكان عهد الأمويين صورة من دولة عادلة تتساهل فى الأخذ بما لا يضر من الأوضاع ، وتقتبس ما تضطرها إليه طبيعة البلاد المفتتحة . وأكثر ما اهتموا له توفير الجباية

---

(١) النطف : مريب (٢) النمرقة : صغير الوسادة وجمع نمارق

مع النظر إلى عمران البلاد والدفاع عن الحوزة ، والحساب للمستقبل بادخار فضل الأموال ، والظهور بمظهر دنيوى لا يعبث بأصل من أصول الدين .

كان أكثر خلفاء الأمويين يقيلون العامل إذا حدث فى جهته خرق لا يستطيع رتقه ، أو فتنة تهرق فيها الدماء ، وتكلف الدولة مالاً ، وجعلوا همهم فى مقاتلة الخوارج والشيعة فى الداخل ، وغزو الروم والتوسع فى الفتح من الشرق والغرب فى الخارج ، وكثيراً ما كانت بعض الأنحاء تثور على الدولة ، إما بسبب تفاحش الخراج ، أو لأسباب أخرى كما كان من قبط مصر فخرجوا غير مرة على الأمويين وعلى من خلفوهم ، وكانوا يرجعون مخذولين ، وربما كان من بعض عمالهم من اشتط فى تقاضى الخراج والجزية والصدقات ، والظلم ماخلا عصر منه ، وخصوصاً فى دولة ليست مشاكلها متشاكلة ، ولا أجيال الناس فى أصقاعها متوحدة متماثلة ، وغاية ما يقال فى الادارة المتبعة أبداً توسيع سلطة العامل ، حتى يسرع فى فض مصالح الناس ، ذلك لأن العرب ألفوا التقاضى على عجل ، وما عرفوا التطويل فى الخصومات والمراجعات . وهذا ما كان ظاهراً كل الظهور فى عهد الخوالف من بنى أمية ، ولاسيما فى خلافة عمر بن عبد العزيز واسطة عقد الأمويين ، والمثل الأعلى للعدل الاسلامى .

كان عمر قبل أن يتقلد الخلافة عهد اليه الوليد بن عبد الملك بإمارة الحجاز « مكة والمدينة والطائف » فأبطأ عن الخروج فقال الوليد لحاجبه : وما بال عمر لا يخرج الى عمله . قال : زعم أن له اليك ثلاث حوائج قال : فعجّله علىّ فجاء به الوليد . فقال له عمر : إنك استعملت من كان قبلى فأنا أحب أن لا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم والجور . فقال له الوليد : إعمل بالحق وإن لم ترفع الينا درهماً واحداً [1] . فلعمر اذاً طريقته فى الادارة اشترط قبل أن يتولى الامارة أن تترك له

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز

حرية العمل . وكان يشعر قبل الخلافة بأن فى إدارة الدولة شيئاً من الظلم . فقال يوماً لأسامة بن زيد — وقد بعثه سليمان بن عبد الملك على ديوان جند مصر وحثه على توفير الخراج — : ويحك يا أسامة إنك تأتى قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل ، فإن قدرت أن تنعشهم فأنعشهم .

ولما بويع عمر شرع لأول أمره بصرف عمال من كان قبله من بنى أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته[1] ، وأخذ يرد المظالم مظلمة مظلمة لا يدع شيئاً مما كان فى أيدى أهل بيته إلا رده . وكتب إلى جميع عماله إن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله ، وسنن سيئة سنتها عليهم علماء السوء ، قلما قصدوا الحق والرفق والإحسان . وكان أول خطبة خطبها : أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لايستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما لا نهتدى إليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

وبدأ بنفسه فنزل عن أملاكه التى انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعى . ورد على رجل قدم عليه من حلوان ادعى أن والده عبد العزيز لما كان والياً على مصر أقطعه عبد الملك بن مروان أرض حلوان فورثها عمر وإخوته . فقال عمر : إن لى فيها شركاء إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض . وقام معه إلى القاضى فقعد بين يديه ، فتكلم عمر بحجته وتكلم المدعى فقضى القاضى له ، فقال عمر : إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم . قال القاضى : قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك . فثلجت نفس عمر بحكم القاضى وقال : وهل القضاء إلا هذا ، تالله لو قضيت لى ما وليت لى عملاً ، وخرج الى الرجل من[2] حقه . وأراد أهله على أن يتخلوا عن أملاكهم فقطع بالمقراض كتب الإقطاعات بالضياع والنواحى .

(١) المحاسن والمساوى للبيهق (٢) مروج الذهب للمسعودى

قالوا ولما أقبل عمر على رد المظالم وقطع عن بنى أمية جوائزهم وأرزاق حراسهم ، ورد ضياعهم الى الخراج ، وأبطل قطائعهم ضجوا من ذلك على رؤوس الملإ فى المسجد . وكانت انتهت لهم هذه الإقطاعات من الخلفاء السالفين . ذكروا أنه كانت غلة عمر لما بويع بالخلافة بين أربعين وخمسين ألف دينار ، وما زال يردها حتى كانت يوم وفاته مائتى دينار ، ولو بقى لردها كلها فأفقر نفسه حتى يقوى على بعض آله ، فيسترد منهم ما أخذوا من عقار ومزارع . وخلف من الناض بضعة دنانير ولم يرتزق من بيت مال المسلمين شيئاً ولم يرزأه[1] حتى مات . وأداه اجتهاده إلى أن فى صيغة امتلاك آل بيته الضياع والرباع نظراً ، وأن ماورثه وورثوه بالطرق المشروعة يقضى العدل المطلق برده على من أخذ منه . واعتقاد الضياع واستثمار الأموال من شأن الرعايا لا الرعاة ، فكان نظره أعلى ، وطريقته أمثل وأعدل .

وكان الرسول أقطع بلال بن الحرث المُزنى أرضاً فيها جبل ومعدن فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها فظهر فيها معدن أو قال معدنان فقالوا : إنما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن وجاؤا بكتاب النبى لهم فى جريدة فقبلها عمر ومسح بها عينه وقال لقيّمه : انظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة وردّ عليهم الفضل

وأبطل عمر بن عبد العزيز هدايا النيروز والمهرجان[2] وكانت تحمل إلى معاوية ومن بعده وقدرها عشرة آلاف ألف ، وهى من العادات الفارسية ، وأقرها معاوية وأنكرها علىّ . وقضى عمر بأن يكتفى بالخراج وزن سبعة « ليس

---

(١) رزأه ماله يجعله وعلبه يرزؤه رزأ أصاب فيه شيئاً كارتزأه (٢) النيروز أو النوروز اسم أول يوم من السنة عند الفرس عند نزول الشمس أول الحمل ، معرب نوروز أى اليوم الجديد . والمهرجان اول نزول الشمس فى برج الميزان

لها آيين[١] ولا أجور الضرابين ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج[٢] ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح، ورفع الخراج عمن أسلم من أهل الأرض » وأبطل جوائز الرسل وأجور الجهابذة وهم القساطرة وأرزاق العمال

---

(١) الآيين العادة والقانون ، وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة . ويقول البيرونى فى الآثار الباقية : كان من آيين الأكاسرة أن يبدأ الملك يوم النيروز فيعلم الناس بالجلوس لهم والاحسان إليهم ، وفى اليوم الثانى يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفي اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماء موابذته ، وفى اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته ، وفى اليوم الخامس لولده وصنائعه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والاكرام ويستوفي ما استوجبه من المبرة والانعام ، فاذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم فنورز لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر باحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين فيتأملها ويفرق منها ما يشاء ويودع الخزائن ما شاء .

وفى كتاب أخلاق الملوك للجاحظ أن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والعلة فى ذلك أنهما فصلا السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إذن بدخول فصل الحر ، إلا أن فى النيروز أحوالا ليست فى المهرجان ، فنها استقبال السنة وافتتاح الخراج ، وتولية العمال والاستبدال وضرب الدراهم والدنانير وتذكية بيوت النيران وصب الماء وتقريب القربان وإشادة البنيان وما أشبه ذلك ، فهذه فضيلة النيروز على المهرجان ، ومن حق الملك أن يهدى إليه الخاصة والحامة (العامة والخاصة من الأهل) والسنة فى ذلك عندهم أن يهدى الرجل ما يحب من ملكه إذا كان فى الطبقة العالية ، فان كان يحب المسك أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزة ولبسة أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدى فرساً أو رمحاً أو سيفاً ، وإن كان راميا فالسنة أن يهدى نشاباً ، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدى ذهباً أو فضة ، وإن كان من عمال الملك وكانت عليه موانيذ (متأخرات أو بقايا) للسنة الماضية ، جمعها وجعلها في بدر حرير صينى وشريحات فضة وخيوط إبريسم وخواتيم عنبر ثم وجهها . وكذلك كان يفعل من العمال من أراد أن يتزين بفضل نفقاته أو بفضل عمالته أو أداء أمانته . وكان يهدى الشاعر الشعر والخطيب الخطبة والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضروات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنه ويفضلنه ، ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها أن تهديها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زينتها واحسن هيأتها ، فاذا فعلت ذلك فمن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها فى الكرامة . ومن حق البطانة والخاصة على الملك في هذه الهدايا أن تعرض عليه وتقوم قيمة عدل . وكان من تقدمت له هدية في النيروز والمهرجان صغرت أم كبرت كثرت أم قلت ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نائبة تنوبه أو حق يلزمه ، فعليه أن يأتي ديوان الملك ويذكر بنفسه الخ . والغالب أن هدايا النيروز والمهرجان عادت تحمل الى الخلفاء ولا سيما في عهد بنى العباس فقد ذكر صاحب نشوار المحاضرة أنه حملت الهدايا الى المتوكل فى مثل هذه المواسم من كل شىء عظيم طريف مليح .

(٢) الفيوج جمع فيج وهو الساعى اى رسول السلطان الذى يسعى بين يديه

وأنزالهم ، وأبطل السخرة والعطاء وورث العيالات على ما جرت به السنة وأقر القطائع[1] التى أقطعها أهل بيته ، ولم ينقص العطاء فى الشرف ولم يزد فيه ، وزاد أهل الشام فى أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى الرجوع عنها . وورد كتابه على عامله فى مصر بالزيادة فى أعطيات الناس عامة ، وكسرت دنان الخمر وعطلت حاناتها ، وقسم للفلاحين بخمسة وعشرين الف دينار ، ونزعت مواريث القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها .

ووضع المكس[2] عن كل أرض واكتفى بالعشر ، والعشر ما يجب فى الزروع التى سقيت بماءِ السماء وما يؤخذ من أموال أهل الحرب الى بلد الاسلام المتاخم لهم ، واذا استقر الصلح معهم على أخذ العشر أو الخمس أو أكثر منه أو أقل منه أثبت ذلك الشرط فى الديوان . ووضع الجزية عن كل مسلم ، وأباح الجزائر والأحماء كلها إلا النقيع[3] وقال فى الجزائر هو شىء أنبته الله فليس أحد أحق به من أحد ، وفرض للناس إلا للتاجر لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين ، وسوّى بين الناس فى طعام الجار ، وكان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرادب ونصف أردب لكل إنسان . وكتب إلى أحد عماله أن يستبرىء الدواوين[4] وينظر إلى كل جور جاره من قبله من حق مسلم أو معاهد فيرده عليه فإن كان أهل تلك

---

(١) أقطعه قطيعة من الأرض والقطائع ، طائفة من أرض الخراج (٢) المكس الظلم وهو ما يأخذه العشار وهو مكاس وماكس . والاحماء جمع حمى وهو موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن ترعى . قال الشافعى فى تفسير الحديث لا حمى إلا لله ولرسوله: إن الشريف من العرب في الجاهلية كان إذا نزل بلداً في عشيرته استعوى كلباً فحمى لخاصته مدى عواء الكلاب ، لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم في سائر المواقع حوله ، فنهى الرسول أن يحمى على الناس حمى كما كانوا في الجاهلية يفعلون إلا ما يحمى لخيل المسلمين وركابهم التى ترصد للجهاد ويحمل عليها فى سبيل الله وإبل الزكاة كما حمى عمر النقيع لنعم الصدقة والخيل المعدة فى سبيل الله — نقله فى التاج . والجزيرة هى الأرض التى لا يعلوها السيل ويحدق بها وفى الأصل كل أرض ينجزر عنها المد (٣) والنقيع البئر الكثيرة الماء والجمع أنقعة والنقيع موضع على مقربة من المدينة حماه عمر لنعم الفىء وخيل المجاهدين لا يرعاه غيرها والأرجح أنه المقصود هنا (٤) استبرأ طلب الابراء من الدين والذنب واستبرأ الشىء طلب آخره ليقطع الشبهة عنه

المظلمة قد ماتوا يدفعه الى ورثتهم . وقضى على عماله بإبطال المائدة والنوبة[1] ، ومن أدى زكاة ماله قبل منه ، ومن لم يؤد فالله حسيبه . ورد الخمس على أهله وعلى أهل الحاجة ، وقضى أن لا يؤخذ من المعادن الخمس بل تؤخذ الصدقة ، وضرب أحدهم سبعين سوطاً لأنه سخر دواب النبط .

وجرت عادة الخلفاء إذا جاءتهم جبايات الأمصار أن يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه ، أى فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس . وقضى عمر على عماله أن يَنْظُروا الأرض ولا يحملوا خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وإن أطاق الخراب شيئاً يؤخذ منه ما أطاق ويصلح ليعمر ، ولا يؤخذ من عامر لا يحتمل شيئاً ، وما أجدب من العامر يؤخذ خراجه فى رفق . وكانوا بفارس يخرصون الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يبتاعون به فيأخذونه ورقاً على قيمهم التى قوموا بها، فرد عمر إلى من شَكَوْا الثمنَ الذى أخذ منهم وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض غلتهم .

كتب إلى عامله إلى البصرة : أما بعد فانى كنت كتبت إلى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعُمان من عشور التمر والحب فى فقراء أهلها ومن سقط اليها من أهل البادية ومن أضافته اليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل فكتب إلىّ أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل اليك ثمنه ، فاردد إلى عمرو ما كان حمل اليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه فى المواضع التى أمرته بها ويصرفه فيها ان شاء الله والسلام .

---

(١) النوبة النازلة جمع نوب ونوائب الرعية ما يتحتم عليهم من إصلاح القناطر والطرق وسد البثوق، ولعل المائدة ما كان يألفه العمال من إطعام الناس على موائدهم ، وهذا مال كبير يمكن اقتصاده حتى لايسرف في بيت المال .

وأمر عماله بالرفق بأهل الذمة وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة فإن كان له حميم ينفق عليه حميمه ، كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن بد من الانفاق عليه حتى يموت أو يعتق . وكتب إلى عامله على الكوفة أن قوّ أهل الذمة فإنا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين ، وأعطى بطريقا[١] ألف دينار يستألفه[٢] على الاسلام .

خاصم حسان بن مالك[٣] عجم أهل دمشق إلى عمر فى كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعه إياها ، فقال عمر: ان كانت من الخمس العشرة الكنيسة التى فى عهدهم فلا سبيل لك عليها . وخاصم عجم أهل دمشق إلى عمر فى كنيسة كان فلان أقطعها لبنى نصر بدمشق فأخرجها عن المسلمين وردها إلى النصارى . وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها فى المسجد فهمّ أن يعيدها اليهم لولا أن المسلمين أقبلوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ويمسكوا عن المطالبة بها فرضوا بذلك وأعجبهم فكتب به إلى عمر فسرّه وأمضاه .

وعمر أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فى الدولة الأموية فردها ، وذلك لانتشار الأمر حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب فاحتاجوا فى ردع المتغلبين وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذى تمتزج به قوة السلطة بنصفة القضاء . وما شرهت قط نفس عمر إلى أخذ أموال الناس بل ما كان يحب أن يأخذ منهم أكثر من الفضل ويسامح بكثير من هذا الفضل . كتب اليه عامله على العراق ان أناساً قبله قد اقتطعوا من مال الله مالا عظيما ليس يقدر على استخراجه من

---

(١) ان البطريق غير البطريرك فالأول لقب ذى منصب سياسى والآخر لقب ذى منصب دينى ، والأول Patrique و Patrice بالفرنسية والثانى Patriarche وقد عربته العربُ أيضاً بقولهم بطريرح وفى بعض الأحيان يختصرونه ويقولون بطرك — قاله أحمد زكى (٢) استألف طلب إلفاً صديقاً مؤانسا (٣) فتوح البلدان للبلاذرى

أيديهم إلا أن يمسهم شيء من العذاب . فكتب اليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر ، كأنى لك جُنّة(١) من عذاب الله ، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله ، فانظر فيما قامت عليه البينة فخذه بما قامت عليه ، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقر به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخلّ سبيله ، فو الله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إلىّ من ألقى الله بدمائهم » وكتب اليه عامله على مصر حيان بن شريح : إن أهل الذمة قد أسرعوا فى الاسلام وكسروا الجزية حتى استلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار لأتم بها عطاء أهل الديوان ، وطلب إليه أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الاسلام. فأجابه عمر : « قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » وكتب اليه عامله على العراق عدَىّ بن أرطاة : إن الناس قد كثروا فى الاسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب اليه : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . » وقال فى إحدى خطبه : وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم . ثم قال : مالى وللدنيا أم مالى ولها .

ولم يشهد مثل تحرى عمر فى اختيار العمال وتعليمهم إحسان العمل ، وكان يرى كل مظلمة تقع فى أقصى البلاد إذا لم يردها ويكشف ظلامة صاحبها ، كأنه هو فاعلها أو على الأقل المسؤول عنها . وإذا شُكى اليه عامل وتحقق ظلمه جاء به مقيداً ولا يُخْليه من ضرب يوجعه به . وكان لا يفتأ يبحث عن سيرة عماله ورضا الناس عنهم ، وإذا عزلهم لا يستعين بهم بعدها أبداً . كتب إلى أحد عماله : « أما بعد فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم ، فاذكر قدرة الله عليك وفناء ما تؤتى

(١) وقاية

اليهم وبقاء ما يأتون اليك » وكتب إلى عامله على العراق: « إن العرفاء من عشائرهم بمكان ، فانظر عرفاء الجند فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فأثبته ، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه ، وأبلغ فى الأمانة والورع » وما كان يضن على عماله بالمشاهرات الحسنة وقد قيل له : ترزق الرجل من عمالك مائة دينار ومائتى دينار فى الشهر وأكثر من ذلك قال : أراه لهم يسيراً إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه ، وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهم بمعايشهم . وقال : ما طاوعنى الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً .

وأخذ عمر نفسه بالسير فى إصلاحه بالتدريج ، ناظراً قبل كل اعتبار إلى الدين لا يحيد عن صراطه قيد أنملة ، ولو كان في ذلك بعض الضرر على بيت المال أو إدخال بعض الوهن على ما اصطلحوا عليه من قبله ، إرادة القاء الهيبة فى النفوس . قال لابنه : ما مما أنا فيه أمر هو أهم إلىّ من أهل بيتك ، هم أهل العُدة والعَدد وقبلَهم ما قبلهم ، فلو جمعت ذلك فى يوم واحد خشيت انتشاره علىّ ، ولكنى أنصف من الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له ، فان يرد الله إتمام هذا الأمر أتمه ، وإن تكن الأخرى فحسب عبد الله أن يعلم الله أنه يحب أن ينصف جميع رعيته . وكتب إلى عامله على خراج خراسان : « إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها ، فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا ، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلىّ ولا أعظم عندى من ثغر خراسان، فاستوعب الخراج وأحرزه فى غير ظلم ، فان يك كفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك ، وإلا فاكتب إلىّ حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم . ولما وجد خراج تلك البلاد يفضل عن أعطيات جندها وأهلها قسم عمر الفضل فى أهل الحاجة .

وكتب إلى أمصار [1] الشام أن يرفعوا إليه كل أعمى فى الديوان أو مقعد أو

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى

من به فالج ، أو من به زمانة تحول بينه و بين القيام إلى الصلاة ، فأمر لكل أعمى بقائد ، ولكل اثنين من الزمنى بخادم . وأمر أن يرفعوا إليه كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية، وفرض للعوانس الفقيرات ، وكان لا يفرض المولود حتى يفطم ، فنادى منساديه لا تعجلوا أولادكم عن الفطام، فانا نفرض لكل مولود فى الاسلام

واتخذ دار الطعام المساكين والفقراء وابن السبيل ، وأوصى أن لا يُصيب أحد من هذه الدار شيئاً من طعامها لأنه خاص بمن طبخ لهم . وقسم فى ولد عليّ ابن أبي طالب عشرة آلاف دينار ، وكان الناس فى عهده يعرضون على ديوانهم لتناول عطائهم ، فمن كان غائباً قريب الغيبة يعطى أهل ديوانه ، ومن كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه إلى أن يقدم أو يأتى نَعِيّة أو يوكل عنه الوالى بوكالة بينة على حياته ليدفعه إلى وكيله . ونظر فى السجون وأمر أن يستوثق من أهل الدعارات [١] ويكتب لهم برزق الصيف والشتاء ويعاهد مريضهم ممن لا أهل له ولا مال، ولا يجمع فى السجون بين قوم حبسوا فى دَيْن و بين أهل الدعارات فى بيت واحد ، ولا حبس واحد ، وجعل للنساء حبساً على حدة ، وعهد بالمحبوس إلى من يوثق بأماناتهم ومن لا يرتشى « فإن من ارتشى صنع ما أمر به » وأنشأ الخانات فى بلاده يَقرى من مر بها من المسلمين يوماً وليلة ويتعهد دوابهم ، ويُقرون من كانت به علة يومين وليلتين ، فان كان منقطعاً به يقوّى بما يصل به إلى بلاده ، وأمر أن لا يخرجن لأحد من العمال رزق فى العامة والخاصة ، فانه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين فى الخاصة والعامة . وأطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها بدون جُعل لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به ، وجعل لكل مدينة رجلا يأخذ الزكاة .

---

(١) استوثقت منه أخذت فى أمره بالوثيقة ، وأهل الدعارة أهل الفساد والشر

ولى عاملا له على المَوْصِل فلما قدمها وجدها من أكثر البلاد سرقا [١] ونقباً ، فكتب إلى عمر يعلمه حال البلد ويسأله أخذ الناس بالظنة ، وضربهم على التهمة أو يأخذهم بالبينة . فكتب : أن خذ الناس بالبينة وماجرت عليه السنة فان لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . وكتب إليه أحد عماله يذكر شدة الحكم والجباية ، فأجابه انه لم يكلفه ما يُعْنِتُه وأن يجبِيَ الطيب من ألحق ويقضى بما استنار له من الحق ، فإذا التبس عليه أمر يرفعه إليه قائلاً : فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولادنيا . وكتب إلى أحد عماله : إن العمل والعلم قريبان فكن عالمًا بالله عاملاً له ، فإن أقواماً علموا ولم يعملوا فكان عملهم عليهم وبالاً . وكتب أيضاً : أما بعد فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين . وكتب إلى عامل : أن دع لأهل الخراج من أهل الفرات ما يتختمون [٢] به الذهب والفضة ، ويلبسون الطيالسة ويركبون البراذين ، وخذ الفضل . وكتب إلى عامله : أما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون .

وكتب إلى أمير مكة أن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجراً فانه لايحل لهم لقوله تعالى : « سواء العاكف فيه (أى فى البيت) والباد » . والبادى من يخرج من الحجاج والمعتمرين سواء فى المنازل ينزلون حيث شاءوا ولايخرج أحد من بيته . وكتب إلى عماله على مكة والطائف أن فى الخلايا صدقة فخذوها منها ، والخلايا الكوائر كوائر النحل . وكتب إلى عامله على اليمن يأمره بالغاء الوظيفة والاقتصار على العشر ، وقال والله لان لا تأتينى من اليمن حفنة كتم أحب إلىَّ من إقرارهذه الوظيفة. وكان ضربها محمدبن يوسف على أهل اليمن ،وهى الخراج جعله وظيفة.

---

(١) يقال السَّرِقة والسَّرَق والسَّرِق (٢) تختم بالعقيق لبسه وبالذهب والفضة أيضا

وما كان عمر منذ كان والياً على المدينة يقطع أمراً بدون استشارة ، وكان دعا إليه عدةً من الفقهاء وحرضهم على أن يبينوا له زلاته إذا رأوا منه ذلك وسمعوا ، فكان إذا جلس مجلس الإمارة فى عهد خلافته أمر فألقى لرجلين منهما وسادة قبالته فقال لهما إنه مجلس شرّة وفتنة ، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلىّ فإذا رأيتما منى شيئاً لا يوافق الحق فخوفانى وذكرانى بالله عز وجل . وكان يقول ، بعد أن ولى الخلافة ، لأن يكون لى مجلس من عبيد الله — أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ومؤدبه لما كان صغيراً — أحبّ إلى من الدنيا وما فيها . وقال : وإنى والله لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال . فقالوا : يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحرّيك وشدة تحفظك . فقال : أين يُذهب بكم والله إنى لأعود برأيه و بنصيحته و بهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف . وكان يحب السمَر مع أهل الفضل فقيل له فى ذلك فقال : لقاء الرجال تلقيح الألباب . وقال : إن فى المحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم ، وتنقيحاً للأدب . وما زال يرد المظالم ويحيي السنن و يطفىء البدع و يقسم الأموال والأعطيات بين الناس . وردَّ فدك إلى ما كانت عليه أى إلى آل الرسول .

أبعد عمر بن عبد العزيز عن حماه الشعراء والخطباء ، وما كان يحب المديح والهجاء ، وهو يعرف استرسال الشعراء فى المجون والهزل[1] ، وأنهم يمدحون من يعطيهم ويهجون من يضن عليهم ، و إذ كان رجل حد وتقوى حجبهم فانقشعوا[2] عنه كلهم ، وثبت الفقهاء والزهاد فكان يعطيهم عطاء كثيراً ، أما الشعراء فاكتفوا بالقليل الذى كان يعطيهم من ماله الخاص ، وأعطى قوماً فى حمص نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا مائة دينار لكل رجل منهم ، يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين . وبحسن سياسته سكنت الخوارج فى

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢) تفرقوا

أيامه فلم يثوروا لأنه ناقشهم فأفحمهم وأقسموا أن لا يشغبوا ما دام خليفة . وما حدثته نفسه قط بإهراق دماء من خالفوه فى مذهبه . وقد كتب إلى عامله على الكوفة أن يستتيب القدرية مما دخلوا فيه ، فإن تابوا يخلى سبيلهم وإلا فينفيهم من ديار المسلمين . أراد بذلك حقن دمائهم ، وكان غيره من الخلفاء يبادر إلى قتلهم .

وطريقة عمر فى إدارة ولاياته طريقة أسلافه فى اطلاق الحرية للعامل ، لا يشاور الخليفة إلا فى أهم المهات مما يشكل عليه أمره . كتب إلى عامله على اليمن : أما بعد فانى أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم ، فتراجعنى ولا تعرف مسافة ما بينى و بينك ، ولا تعرف أحداث الموت حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة لكتبت أردها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى . وأملى على كاتبه يوماً كتاباً إلى عامله على الكوفة قال فيه : « إنه يُخَيل إلىّ أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلا شاة لكتبت إلىّ أضأن أم ماعز ، فان كتبت بأحدهما كتبت إلىّ أصغير أم كبير ، فإن كتبت إليك كتبت إلىّ أذكر أم أنثى ، فاذا أتاك كتابى هذا فى مظلمة فاعمل به ولا تراجعنى » وكتب إلى آخر : « إنك تردد إلىّ الكتب فنفذ ما أكتب به إليك من الحق ، فانه ليس للموت ميقات نعرفه » .

قال له بعض أصحابه عليك بأهل العذر قال : من هم ؟ قالوا : الذين إن عدلوا فهو ما رجوت منهم ، و إن قصروا قال الناس قد اجتهد عمر . وكان ينهى عماله عن المثلة [١] فى العقوبة أى جز الرأس واللحية ، و ينهاهم عن الاسراف حتى فى القراطيس التى يكاتبونه فيها . فقد قيل له : ما بال هذه الطوامير التى تكتب بالقلم الجليل وتمد فيها وهى من بيت مال المسلمين . فكتب إلى العمال أن لا يكتبن فى طومار ولا يمدن فيه . قالوا وكانت الطوامير شبرا ونحو ذلك . ومما كتب إلى أحد

---

(١) المثلة بضم الميم وفتحها العقوبة والتنكيل

عماله : أدق قلمك ، وقارب بين سطورك ، واجمع حوائجك فانى أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به . وكان عمر من كبار الكتاب والخطباء ، وكان إذا خطب على المنبر فخاف فيه العجب قطع ، وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزقه ، ويقول : اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى . ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتباً فأملى عليه كتاباً واحداً من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة فأملى أحسن إملاء وأبلغه وأوجزه، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد . قالوا وجعل يكتب بيده إلى العمال فى الأمصار [1] .

كان عمر يحسن ظنه بعماله ولا يتخلى عن كشف أحوالهم فقد وفد عليه بلال ابن أبى بردة بخناصرة فقال عمر للعلاء [2] بن المغيرة بن البندار ، وقد رأى بلالا يديم الصلاة : إن يكن سرُّ هذا كعلانيته ، فهو رجل أهل العراق غير مدافع . فقال العلاء : أنا آتيك بخبره ، فأتاه وهو يصلى بين المغرب والعشاء فقال : اشفع صلاتك فإن لى اليك حاجة ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفت حالى من أمير المؤمنين فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لى ؟ قال : لك عُمالتى [3] سنة ، وكان مَبْلغها عشرين ألف ألف درهم . قال فاكتب لى بذلك . قال : فأرقد [4] بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك . فأتى العلاء عمر بالكتاب ، فلما رآه كتب الى والى الكوفة : « أمَّا بعد فإن بلالاً غرَّنا بالله ، فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله والسلام » وبلال هذا كان فيما يقال أول من أظهر الجور من القضاة فى الحكم ، وكان أمير البصرة وقاضيها . وكان عمر يقول : لا ينبغى للرجل أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالماً قبل أن يستعمل ، مستشيراً لأهل العلم ، ملقياً للرَّثع [5] ، ومنصفاً للخصم ، ومقتدياً بالأئمة .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى (٢) الكامل للمبرد (٣) العمالة الأجرة (٤) أرقد أسرع (٥) الرثع الطمع

سخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك الى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه : إن من حفظ أنْعُم اللهِ رعاية ذوى الأسنان ، ومن اظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنوب ، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع واستتمام الصنائع . وقد كنت أودعتَ العُرْيَان نعمةً من أنعمك فسلبْتها عجلةُ سُخطك وما أنصفته ، غَصَبْتُه على أن وليته ثم عزلته وخلّيته ، وأنا شفيعه ، فأُحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ، ولا تخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما أودعته وتتوى[1] ما أفدته . فعفى عنه ورده الى عمله .

خطب يوما فقال : أيها الناس ، لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا و إنى لست بقاض ، ولكنى مقتد ، ألا و إنى لست بمبتدع ولكنى متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ولكن الامام الظالم هو العاصى ، ألا لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقال من خطبة : وما منكم من أحد تبلغنا حاجته يتسع له ماعندنا إلا حرصنا أن نسد حاجته ما استطعنا ، وما منكم من أحد تبلغنا حاجته لايتسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بى و بخاصتى حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . ومن غريب أمره فى إطلاق حرية القول أن يخطب الناس عبد الله بن الأهتم ، و يذكر ما آل إليه أمر الأُمة على عهد صاحب الشريعة والخليفتين من بعده ثم يقول : إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضَلَعْ[2] أعوج . يقول هذا فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، وعمر يسكت عنه ، ولطالما أسمعه بعض الناقمين على أهل بيته ما يغضب له الحليم ، فما كان يقابلهم بغير الاغضاء يفهمهم من طرف خفى أنه لا يليق بالرجل أن ينال من آله .

وكان عمر يجلس الى قاصّ العامة و يرفع يديه إذا رفع ، وقاصُّه محمد بن قيس . وعلم أن أُناساً من القصاص يصلون على خلفائهم وأُمرائهم يلتمسون الدنيا بعمل

---

(١) توى كرضى هلك واتواه الله فهو توّ أذهبه فهو ذاهب والتوى الهلاك (٢) الضلع الميل

الآخرة، فأمرهم بالدعاء للمؤمنين عامة وأن يلغوا ما سوى ذلك . وأدرك أن البادية يتحفزون إلى أن يرجعوا إلى سيرتهم فى الجاهلية ، فبعث إليهم برجلين من أرباب الفقه يفقهان الناس فى البدو وأجرى عليهما رزقاً . وكأنه قطع عهداً على نفسه إذا ولى أمر المسلمين « أن لا يضع لَبِنَةَ على لبنة ولا آجرة على آجرة » لئلا يقع فى ذلك حيف على الرعية . وهم يتولون من ذلك مايصلحهم من إقامة القصور والبيوت، أما هو فيعمل لإغنائهم وحملهم على الجادة ، حتى لم يبق فقير فى أيامه فى أكثر الأمصار ، لكثرة ما وزع على الفقراء من أموال الصدقات : يقبض عماله الصدقة ثم يقسمونها فى الفقراء حتى إنه ليصيب الرجل الفريضتان أو الثلاث فما يفارقون الحيّ وفيهم فقير ، ولا ينصرفون الى الخليفة[1] بدرهم . بعث عاملا على صدقات إفريقية[2] فأراد أن يعطى منها الفقراء فالتمسهم فى كل مكان فلم يجد فيها فقيراً يقبل أن يأخذ صدقة بيت المال، فاشترى بها رقاباً وأعتقها وجعل ولاءهم للمسلمين . وما مات عمر حتى جعل الرجل يأتى بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، لا يجد من يضعه فيهم ، لكثرة ما أغنى الناس عمر .

ومن أهم ما عمله عمر فى حسن الادارة والسياسة أنه لم يشأ — لما وسدت إليه الخلافة — أن يبدأ بعمل قبل أن يستدعى المسلمين من أرض الروم ، وقال: لَرَجُلٌ من المسلمين أحب إلىّ من الروم وماحوت . وفى سنة ١٠٠ أمر أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية ثم اشترى ملطية من الروم بمائة ألف أسير ، فجعل لدولته سداً منيعاً، وأنقذ المسلمين من ذل الأسر . وأراد هدم المصيصة ونقل أهلها عنها لما كانوا يلقون من الروم فتوفى بعد ذلك .

ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريره وبكى وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب ، كان ذهب للفداء بين المسلمين والروم ، ما أبكى المقل،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم

ومما قال : لقد بلغني من بره وفضله وصدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكني عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب (١) .

وأحب عمر أن يجلى المسلمين من الأندلس لأنه كان يعتقد أن مقامهم فيها غير طبيعى ، لأنهم محاطون بالأعداء بعيدون عن مقر الخلافة . فأمر أحد عماله أن يرسم له مصوّر الأندلس ليرى فى إجلاء المسلمين رأيه . وكتب إلى عامله عبدالرحمن ابن نعيم يأمره باقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم فأبوا ، وكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه : « اللهم إني قد قضيت الذى عليّ فلا تَغْزُ بالمسلمين فحسبهم الذى قد فتح الله عليهم » كل أولئك يدل على أن عمر ما كان يريد التوسع فى الفتوح ، ويحاول أن يقتصر على البلاد التى دخلت فى المملكة الاسلامية حتى لا تهرق الدماء على غير طائل ، و يعمر الناس البلاد ، و يصلح أهلها صلاحاً دائماً على ان يكونوا بين آخرى يرجو ثواب الله، ودنياوى يستجمع صفات الشرف فى نفسه .

وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم (٢) إلى الاسلام والطاعة على أن يُملّكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . ولما ولى اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم ببلاد المغرب سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الاسلام ، وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتاباً يدعوهم إلى الاسلام فقرأه اسماعيل عليهم فى النواحى فغلب الاسلام على المغرب. وكتب فى اللواتيات: ان من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليردها إلى أهلها ، ولواتية قرية من البربر كان لهم عهد . ولما استخلف كتب إلى ملوك

(١) مروج الذهب للمسعودى (٢) فتوح البلدان للبلاذرى

ما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عمن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم ، وابتنى خانات . ثم بلغ عمر عن عامله عصبية وكتب إليه أنه لا يصلح أهل خراسان إلا السيف فأنكر ذلك وعزله وكان عليه دين فقضاه . ووفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه ان قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر، فكتب إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فان قضى باخراج المسلمين أخرجوا ، فحكم القاضي باخراج المسلمين وعلى أن ينابذوهم على سواء(١) ، فكره أهل سمرقند الحرب وأقروا فأقاموا بين أظهرهم . قال عمر لمزاحم مولاه : إن الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها أو فعلا لا تحبه، فعظني عنده وانهني عنه . وكان عنده رجلان فجعلا يلحنان فقال الحاجب: قوما قد آذيتما أمير المؤمنين .فقال عمر: أنت آذى لي منهما.

هذا مجمل ما تم في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من الإصلاح فأعاد الى الخلافة جمالها وجلالها على ما كانت عليه أيام جده لأمه عمر بن الخطاب . ولكن عمر بن عبد العزيز عمل في غير زمان عمر بن الخطاب وعمل بغير رجاله . وكان دأب عمر بن عبد العزيز أن يذكر الناس بالآخرة ويخوفهم العذاب ، ودأب ابن الخطاب أن يذكرهم العمل للدنيا مع شدة التمسك بحقوق الأخرى . فكانت إدارة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه وسيرة حفيده كذلك . لأن الناس فسدوا في أواخر القرن الأول أو بدأوا بالفساد ، فكان هجّيراه أن يذكرهم بالمعاد ويطهر أخلاقهم . وعمل عمر كل هذا في سنتين وخمسة أشهر وهذا من أعجب ما يدون في تاريخ عظماء الأرض . ولما مرض مرضته التي مات فيها دخل عليه مسلمة بن عبدالملك فقال : ألا توصي يا أمير المؤمنين ؟. فقال : فيم أوصي ، فوالله إن لي من

---

(١) قوله تعالى: فانبذ اليهم على سواء معناه اذا هادنت قوما فعلمت منهم النقض للعهد فلا توقع بهم سابقاً الى النقض حتى تعلمهم انك نقضت العهد فتكونوا في علم النقض مستوين ثم أوقع بهم (المصباح)

مال . فقال : هذه مائة ألف فمر بها بما أحببت . وقال : أوَ تقبل ؟ . قال : نعم . قال : ترد على من أُخذت منه ظلماً . فبكى مسلمة ثم قال : يرحمك الله لقد ألنت منا قلوناً قاسية ، وأبقيت لنا فى الصالحين ذكراً .

ادارة يزيد بن عبد الملك وهشام ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد .

ولم يكد عمر بن عبد العزيز يلحق بمولاه حتى عادت الدولة الى سابق عهدها إلا قليلا . وعزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً وأعاد سب علىّ على المنابر ، وكتب إلي عمال عمر : أما بعد فإن عمر كان مغروراً غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه فى انكسار الخراج والضريبة ، فإذا أتاكم كتابى هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس الى طبقتهم الأُولى ، أخصبوا أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا والسلام . ويزيد هذا أحد إخوة أربعة تولوا الخلافة ولقبوا بالأكبش الأربعة ، وهذا كان على غير طريقة إخوته .

وجاء دور هشام فى الخلافة وناهيك به من « رجل محشو عقلا » وفيه من الحلم والأناة والعفة ما ظهرت آثاره فى إدارة الملك وعدّ أحد السواس الثلاثة من بنى أُمية وهم معاوية وعبد الملك وهشام ، وبه ختمت أبواب السياسة وحسن السيرة ، وكان يحب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال وتقوية الثغور وإقامة البرك والقنى فى طريق مكة وغير ذلك ، ويسير موكب كسائر الخلفاء من أهل بيته ، ولم يكن مثل ذلك لغير أخيه مسلمة بن عبد الملك . وافتتح عهده بعزل عمر بن هبيرة عن العراق وتولية خالد بن عبد الله القَسْرى ، فأدار هذه الولاية [1] العظيمة نحو خمس عشرة سنة بإقامة العدل وإفاضة السلام والعمل الصالح . وكان هشام على غاية الإخلاص متقللاً متقشفاً فى ذاته ، يقوم بواجب الخلافة حق القيام ،

---

(١) معلمة الاسلام . مادة هشام

ومن أكبر همه إصلاح أموال الدولة ، وغلب عليه الاقتصاد حتى كاد ينقلب الى شح . بينا هو يوصى عقّال بن شُبَّة[١] لما وجهه الى خراسان نظر هذا الى قَباء الخليفة فقال : مالك ؟ قال : رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء فَنَك[٢] أخضر فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك أم غيره . فقال : هو والله الذى لا إله إلا هو ذاك ، مالى قَباء غيره ، وأما ما ترون من جمعى هذا المال وصونه فإنه لكم .

وكانت دواوينه مثال التدقيق والعناية فى معاملة الرعية ومحاسبة العمال الذين يتصرفون له يتخيرهم من الأُمناء البعيدين « من الفساد ومن الرشا ومن الحكم بالهوى » ويعتمد فى توسيد عظام الأعمال على أُناس من أهل بيته . قال عبد الرحمن ابن على : جمعتُ دواوين بنى مروان فلم أر ديواناً أصح للعامة وللسلطان من ديوان هشام . وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بنى مروان أشدَّ حصراً فى أمر الصحابة ودواوينه ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام .

كتب هشام إلى والى العراق لما أخذ ابن حسان النبطى فضر به بالسياط ، وكان أوغر صدر هشام عليه من إفراط الدالة واحتجان الأموال وكفر ما أسداه إليه من توليته إياه العراق : « ان هشاما آثرك بولاية العراق ، بلا بيت رفيع ولا شرف قديم ، وهذه البيوتات تعلوك وتغمرك وتسكتك وتتقدمك فى المحافل والمجامع عند بداءة الأُمور وأبواب الخلفاء . ومما قال له : أنه استعان بالمجوس والنصارى وولاهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وسلطهم عليهم . وقال له : والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك أمير المؤمنين ما أفسدت من مال الله ، وضيعت من أُمور المسلمين ، وسلطت من ولاة السوء على جميع أهل كور عملك تجمع اليك الدّهاقين[٣] هدايا النيروز والمهرجان ، حابساً لأكثره ، رافعاً لأقله مع مخابث مساويك[٤]

---

(١) تاريخ الطبرى (٢) الفنك محركة جلد يلبس فروتها أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعدلها صالح لجميع الأمزجة المعتدلة (٣) الدهقان جمع دهاقنة ودهاقين، التاجر وزعيم فلاحى العجم ورئيس الاقليم أو مقدم قرية أو صاحبها بخراسان والعراق (٤) يقال هو خبيث مخبث وفيه مخابث جمة

وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة ، وكان الأسطول يشترك مع الجيش البرى من اليابسة ، وذلك بقيادة ابنيه معاوية وسليمان . وتقدمت جيوشه فى الشرق فغزا الترك وأخذ دعاة بنى العباس وثوار الخوارج فى أيامه يعملون سراً وجهراً إذا أمكنتهم الحال ، وعلى ما فى هشام من بعد نظر لم يقدّر مدى الدعوة التى عادت بعد على دولته بالوبال ، مع أنه كان معروفاً بالشدة فى مثل هذه المسائل . وظلّ أعداء الدولة ينقضون فى أساسها ، وما كان بما عرف فيه من العقل يريد إثارة الخواطر فيما لا يعود على السلطان بفائدة ، فقد لقيه فى الحج سنة ١٠٦ سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان وقال له : يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن الصالحة أبا تراب (على بن أبى طالب) فأمير المؤمنين ينبغى له أن يلعنه فى هذه المواطن الصالحة . فشق ذلك على هشام وثقل عليه كلامه ثم قال : ما قدمنا لشتم أحد ولا للعنه ، قدمنا حجاجاً ، ثم قطع كلامه [١] .

وذكروا أن هشاماً كان ينزل الرُّصافة من أرض قِنَّسْرين وكان سبب نزوله إياها أن الخلفاء كانوا ينتبذون [٢] ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجاً عن الناس ، فلما أراد هشام أن ينزل الرُّصافة قيل له : لا تخرج فإن الخلفاء لا يطعنون ولم ير خليفة طعن . فقال : أتريدون أن تجربوا بى ! فنزل الرُّصافة وهى برية وابتنى بها قصرين . وكان [٣] لا يدخل بيت ماله مال حتى يشهد أربعون قَسامة [٤] أنه أخذ من حقه وأعطى لكل ذى حق حقه . وهو من أحزم بنى أُمية ومن أعقلهم يفضل على العلماء والفقهاء كثيراً .

وتولى يزيد بن الوليد الخلافة فنقص الناس من عطائهم ، وكان أشد ضنانة

---

(١) تاريخ الطبرى (٢) انتبذ الرجل ، اعتزل ناحية (٣) تاريخ الطبرى (٤) القسامة الذين يقسمون على دعواهم

بالمال من هشام ، فسمي يزيد الناقص ، فاضطربت عليه البلدان ، وكان الخليفة من بني أمية إذا مات وقام آخر زاد في أرزاقهم وعطاياهم عشرة دراهم فيقولون : (عَيْرٌ بعير [١] وزيادة عشرة) أي رجل برجل وزيادة عشرة . فسار هـذا القول مسير الأمثال عند أهل الشام . وكان يزيد يهتم باللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق ، وأفسد على نفسه بني عميه ولد هشام وولد الوليد ابني عبد الملك بن مروان . وأفسد على نفسه اليمانية وهم أعظم جند الشام . ولعل هـذه الغلطات الادارية جسمت ما اتهم به ، فكانت حجة للخواص عند العوام حتى أوردوه موارد الهلكة . وقال خالد بن يزيد : يا أمير المؤمنين قتلت ابن عمك لاقامة كتاب الله تعالى وعمالك يغشمون ويظلمون . قال : لا أجد أعواناً غيرهم وإني لأبغضهم . قال : يا أمير المؤمنين ولِّ أهل البيوتات وضم إلى كل عامل رجلا من أهل الخير والعفة ، يأخذونهم بما في عهدك . قال : أفعل .

وأمر الوليد بن يزيد بعض رجاله بتعذيب بعض العمال لأنه كان رفع إليه أنهم أخذوا مالا كثيراً [٢] ولما قتل الوليد (١٢٦) كان في بيت المال سبعة وسبعون ألف ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها ، وتعهد للناس أن لا يضع حجراً فوق حجر ولا لبنة على لبنة ولا يكري نهراً ولا يكنز مالاً ولا ينقل مالاً من بلد إلى بلد حتى يسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقله إلى البلد الآخر الذي يليه ، ولا يغلق بابه دونهم ولهم أعطياتهم في كل سنة وأرزاقهم كل شهر حتى يكون أقصاهم كأدناهم . أما مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فقد كان شيخ بني أمية وكبيرهم [٣] « ذا أدب كامل ورأي فاضل » وهو أحزم بني مروان وأنجدهم [٤] وأبلغهم ، ولكنه ولي الخلافة والأمر مدبر عنهم .

---

(١) العير السيد والملك (٢) تاريخ الطبري (٣) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري
(٤) العقد الفريد لابن عبد ربه

هذا ما كان من إدارة دولة امتد حكمها مسافة [١] مائتى يوم من المشرق إلى المغرب تقرأ آى القرآن فى سمرقند كما تتلى فى قرطبة . و يتلاقى الهندى مع السوٰدانى فى مكة للحج . وكلاهما يدين لبنى أمية ، وفى أيامهم ظهرت على الممالك قدرة وغنى، وكانت كلمة الدولة نافذة فى ثلاثة أقسام من الأرض : آسيا و إفريقية وأوربا . ملكوا من برارى جبل الطور إلى قفار ما وراء النهر ، ومن وادى كشمير إلى منحدر جبل طوروس على البحر المتوسط وأطراف الأناضول وسائر مملكة الأكاسرة وما عجز عنه الأكاسرة ، وأخذت الجزية التى قررها عمر بن الخطاب من النوبة كما أخذت من الهند والصين على ما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلى . وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق ، حتى صارت دمشق فى نظر المسلمين كأنما هى رومية فى نظر المسيحيين ، وانتشرت حضارة الاسلام [٢] فى نصف قرن تقريباً من سواحل البحر الاطلنطى إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها إلى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت فى حوزة الاسلام أمم كثيرة من السلالة السامية « العرب والسريان والكلدان » ومن السلالة الحامية « المصريون والنوبيون والبربر والسودان » ومن السلالة الآرية « الفرس واليونان والاسبان والأهانداى الهنود » ومن السلالة المسماة بالتورانية « الترك والتتار »

كل هذا وما كان جميع الناس راضين عن إدارة الأمويين ولا سيما خصومهم السياسيون . ومتى كان الخصم ينصف خصمه . و إليكم مثالاً من ذلك صدر عن أحد نساك الاباضية وخطبائهم وهو أبو حمزة يحيى بن مختار الخارجى ، خطب فى مكة ووصف سيرة الخلفاء الراشدين ثم قال فى بنى أمية : وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، و بطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ، ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون بالفريضة من غير موضعها ، ويضعونها

(١) حماة الاسلام لمصطفى نجيب (٢) الحضارة الاسلامية لأحمد زكى

فى غير أهلها ، وقد بين الله أهلهـا فجعلهم ثمانية أصناف فقال : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) فأقبل صنف تاسع منها فأخذ كلها ، تلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ا هـ والله أعلم بمقدار ما فى هذا الخطاب — على جلالة قدر صاحبه — من الخطإ والخطل . وفى حديث علىّ : وأما إخواننا بنو أمية فقادة ذادة ، والذادة جمع ذائد وهو الحامى الدافع ، قيل أراد أنهم يذودون عن الحُرَم[1] . ولكن غضب العربى فى رأسه فاذا غضب لم يهدأ حتى يخرجه بلسانه أو يده كما قال ابن عياش .

لا جرم أن إدارة الأمويين لم تكن فى كل أيام خلفائهم بريئة من العيوب ، ولم تضعف فى الحقيقة إلا فى أيام يزيد بن الوليد ، وكان على غير طريقة أسلافه فى أعماله . وكان آخرهم مروان بن محمد على عظم همته وشدة بأسه مشغولاً بالدفع عن الخلافة وكثرت الفتوق فضعفت إدارة المملكة . كانت حكومتهم عربية صرفة يتولاها أهل البيوتات والأشراف على الأكثر . وقيل إن من أوكد الأسباب فى زوال سلطان بنى أمية استئثار الأخبار عنهم وإغضاب قواد الدولة ، وانقسام البيت الأموى على نفسه بسبب ولاية العهد . ثم كان تأخير العطاء عن الجند فظاهروا غيرهم من العباسيين ولم يقاتلوا بإخلاص للخليفة كما كانوا من قبل . وساعد التوسع فى الفتوح على عهد هشام على اختلال نظام الدولة فاتسعت دائرة ملكهم الى ما لم تبلغه دولة الرومان . ثم إن انقسام العرب فى خراسان إلى مضرية ويمانية وتنازع رؤسائهم على الولاية كان من الأسباب المسهلة لقيام الدعوة العباسية فى خراسان نفسها ، ولم يغن عن الأمويين من قتل من دعاة العباسيين الذين عملوا لدولتهم فى أرض أعدائهم وتحت سمع عمالهم وبصرهم .

---

(١) النهاية لابن الأثير

ادارة العباسيين

تدابير السفاح والمنصور

اختار محمد بن على بن عبد الله بن العباس — يوم قام يدعو لآل العباس ويحاول انتزاع الملك من الأمويين — بلاد خراسان ميداناً لإظهار دعوته لأنه كان جازماً كل الجزم، أن أهل الشام والجزيرة والعراق والحجاز لم يكن هواهم مع آل العباس. بل كانوا متشبعين بالروح الأموى يعلنون فى سرهم وجهرهم ولاء بنى مروان، وأن فى أهل خراسان «العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، ولم يقدم عليها الفساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف[1] منكرة» وليس فيهم التحزب للقبيلة[2] والعصبية للعشيرة، وهم مظلومون يؤملون الدول ولم يكونوا على العهد الأموى محل الرعاية، وأقصاهم الأمويون عن الحكومة وجلبوا لهم العمال من الأحزاب العربية. وأن أهل خراسان لم يزالوا فى أكثر ملك العجم لقاحا[3] لا يؤدون إلى أحد إتاوة ولا خراجا[4]، فلما كان الاسلام صالحوا عن بلادهم فخف خراجهم ولم تسفك بينهم الدماء.

وأخذ الدعاة يدعون إلى الرضا من آل محمد، ومن مرو الشاهجان ظهرت دولة بنى العباس فى سنة ١٢٧ وفى دار شخص منها يعرف بأبى النجم العيطى صبغ أول سواد لبسته المسوّدة. وفى شهر رمضان سنة ١٢٩ نشر العلم الأسود على

(١) معجم البلدان لياقوت (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة (٣) الحى اللقاح والقوم اللقاح الذين لا يدينون للملوك أو لم يصبهم فى الجاهلية سبأ (٤) كتاب العرب أو الرد على الشعوبية لابن قتيبة (٥) الفخرى لابن الطقطقى

خراسان ، وكان الخراج يجبى لابراهيم الامام وهو فى الشام والحجاز . ولا مال لديه ولا نَشب . ومروان بن محمد الجعدى الخليفة الأموى المبايع ومعه الجند والسلاح والمـال والدنيا جميعها عنده ينتثر ملكه عقدة عقدة . وقلما سمع أهل بلد بجيش خراسان إلا سودوا أى لبسوا السواد شـعار بنى العباس قبل أن يوافيهم ، ونزعوا البياض شعار الأمويين المبيضين . وجيش خراسان أى الجيش العباسى على قلته يغلب وجيوش الأمويين على كثرتها تتوالى هزائمها . ويكتب كاتب مروان عبد الحميد بن يحيى كتاباً إلى أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة باسم مروان و يضمنه مالو قرىء لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبى مسلم ، وكان من كبر حجمه يحمل على جمل [١] ، فلا يرضى أبو مسلم أن يقرأ الـكتاب ويجعله طعاماً للنار . ومن الحزم أن لا يسمع وعداً ولا وعيـداً ما دام قد دبر أمره تدبير من طبَّ لمن حب [٢] . وكان الامام يوصى جماعته أن لا يتجاوزوا الفرات . ومن حسن طالع الجيش الفاتح أنه اجتاز الفرات فى مَدّه ، فهلك القائد وانتصر جيشه . فلما بلغ مروان الجعدى ذلك قال : هذا والله الإدبار والا فمن سمع بميت يهزم حياً !

داول أبو العباس السفاح بين الـكوفة والأنبار والحيرة والهاشمية من المدن ، فـكان يتنقل فيها ، ولم يجعل له عاصمة مستقرة . واتخذ له وزيراً أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان وسلمه الدواوين ، وكان يسمى وزير آل محمد . وأصبحت الوزارة فى الدولة العباسية مقررة القواعد والقوانين ، وما كانت تعهد فى الدولة الأموية ، وكان من يستشيرهم الأمويون يسمون كتاباً ومشـيرين على الأغلب ، ويسمى وزيراً من باب التجوّز لا على مثال بنى العباس . استوزر السفاح خالد بن برمك بعد أن قتل أبا سلمة الخلال،فجعل خالد له دفاتر فى الدواوين من الجلود وكتب فيها

(١) سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (٢) يقال فلان طب بكـذا أى عالم به وفى المحكم : وسمعت الـكلابي يقول إعمل فى هذا عمل من طب لمن حب . وعن الأحمر من أمثالهم فى التنوق فى الحاجة وتحسنها أصنعه صنعة من طب لمن حب أى صنعة حاذق لمن يحبه (التاج)

وترك الدروج . وكانت كتابة الدواوين فى صدر الاسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفاً مدرجة . دام ذلك مدة بنى أمية . ولما تصرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك فى الأمور أيام الرشيد اتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعد[1] .

عهد السفاح بادارة البلاد الى رجال من آل بيته يستأصلون قواد الأمويين وجماعاتهم ، لا تأخذهم بهم رأفة ولاهوادة ، و يقتلون حتى من استأمنوا ، و يبحثون عنهم حتى فى أقصى حدود المملكة ، ليجتثوا أصولهم ، فانتقموا لمن قتله الأمويون على نسبة عظيمة جداً ، أخذوا ثأرهم من أحيائهم بالقتل ، ومن أمواتهم بإحراق جثثهم وتعفية آثارهم ، وما ارتكبوه فى دمشق من نسف قبور خلفاء الأمويين والقضاء على كل أثر لهم كان سيئة وأى سيئة .

ولم يتفرغ أبو العباس السفاح لوضع أساس ثابت للإدارة لإنصرافه جملة واحدة الى توطيد دعائم الفتح وقتال الخوارج عليه ، وسار فى الجملة على نظام الأمويين ، وكان أخوه أبو جعفر يتولى لأخيه كل أمر عظيم ، وكانت العراق على حظ وافر من ترتيب دواوينها وانتظام شؤون إدارتها على العهد الأموى بفضل من وليها من أكبر رجال الادارة والسياسة من بنى أمية . وكذلك الحال فى معظم الأقطار تبدلت دولة بدولة وخليفة بخليفة ، ونسج الآخر على منوال الأول اضطراراً واختياراً ، وقل أن خالفه فى ترتيبه ونظمه . وخطب السفاح قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً ، فضج الناس وقالوا : أحييت السنة يا ابن عم رسول الله . وكان السفاح جميل العشرة جواداً بالمال ويحب مسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلا ، فقال له أبو بكر الهذلى : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل الى امرأة وجارية ، فلا يزال يسمع سخفاً و يرى نقصاً . فقال له الهذلى : لذلك فضلكم

---

(١) مروج الذهب للمسعودى

الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين . ومن أثمن ما وصل إلى أبي العباس من ميراث بني أمية بُردة الرسول وقضيبه . وكان مروان[١] بن محمد حين أحيط به في مصر دَفَعهما إلى خادم له وأمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال . فلما أخذ الخادم في الأسرى قال : إن قتلتموني ضاع ميراث النبي ، فأمنوه على أن يسلم لهم ذلك . وكان للبردة والقضيب شأن وأي شأن عند جميع الخلفاء من بعده .

ولي المنصور الخلافة وكان أسنّ من أخيه أبي العباس السفاح ، ودبر المملكة في أيامه تدبيراً حسناً. أفضى إليه الملك وهو حنيك[٢] كما قال عن نفسه، قد حلب هذا الدهر أشطره[٣]، وزاحم المشاة في الأسواق ، وشاهدهم في المواسم . وغازاهم في المغازي قال : فوالله ما أحب أن أزداد بهم خُبراً على أني أحب أن أعلم ما أحدثوا بعدي، مذ تواريت عنهم بهذه الجدارات ، وتشاغلت عنهم بأمورهم ، مع أني والله ما لمت نفسي أن أكون قد أذكيت عليهم العيون حتى أتتني أخبارهم وهم في منازلهم . والواقع أن أبا جعفر المنصور في تأسيسه دولة بني العباس كمعاوية في تأسيس دولة بني أمية ، مع اعتبار الفرق بين عصريهما ، والسرُّ الأعظم في نجاحهما أنهما مرنا على الإدارة قبل أن توسد الخلافة اليهما .

ولي المنصور أهله البلدان وفرق العمالات بين قواد من العرب وقواد من مواليه . فكان ينقل قواد العرب في أعماله لثقته بهم واعتماده عليهم ، ثم استعمل مواليه وغلمانه في أعماله ، وصرّفهم في مهماته ، وقدمهم على العرب ، فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٢) الحنيك والمُحْنك والمُحَنّك والمحتنك والحُنَك هو المجرب البصير بالأمور (٣) يقال الرجل المجرب للامور فلان قد حلب الدهر أشطره أي قد قاسى الشدائد والرخاء وتصرف في الفقر والغنى وأشطره خلوفه أو أخلاف من أخلاف الناقة . وحلب فلان الدهر أشطره أي مر به خيره وشره

مراتبها . فهو الذى « أصّل[١] الدولة ، وضبط المملكة ، ورتب القواعد ، وأقام الناموس ، واخترع أشياء ، ولم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، على أنه كان يشاور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء » واجتمع له كثير من الخيل لم يعرف مثله فى جاهلية ولا إسلام ، واستجاد الكساء والفرش وعدد الحرب ومؤنها ، واصطنع الرجال وقوى الثغور . ولُقّب بأبى الدوانيق لتشدده فى محاسبة العمال والكتاب . وجماع سياسته المالية أن يدخر المال قائلاً : « من قلّ ماله قلّ رجاله ، ومن قلّ رجاله قوى عليه عدوه ، ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه ، ومن اتضع ملكه استبيح حماه » وذكر أنه أخذ أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلاً[٢] . وكان يعطى الجزيل والخطير[٣] إذا رأى فى العطاء فائدة ، ويمنع اليسير والخطير إذا كان عطاؤه تضييعاً ، فكان كما قال زياد لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره . ومن أجل هذا كان يثمر ماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل .

وعَدَ محمد بن عبد الله لما خرج عليه إذا رجع إلى طاعته من قبل أن يقدر عليه أن يعطيه ألف ألف درهم ، ويؤمنه على نفسه وولده وإخوته ، ومن بايعه وتابعه وشايعه ، ويطلق من فى سجنه من أهل بيته وأنصاره ، لأنه آثر أن يحقن الدماء ويعطى هذا العطاء على أن يبعث البعوث وينفق الأموال . وأنفق ثلاثة وستين ألف ألف درهم على جيش واحد كان مؤلفاً من خمسين ألفاً وجهه إلى إفريقية لقتال الخوارج ، بمعنى أن أبا جعفر كان الحزم كله فى تدبير ملكه ، والحزم كله فى جمع المال للشدائد والإنفاق منه عند الحاجة لقيام الدولة ، ويذكرون له فى باب الامساك أخباراً كثيرة .

---

(١) الفخرى لابن الطقطقى (٢) تاريخ اليعقوبى (٣) مروج الذهب للمسعودى

يقول المسعودى إن المنصور[١] كان فى الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف ، وهو أول من رتب المراتب من الخلفاء[٢] وكان لبنى أمية بيوت بلا مَنَعَة ولا إذن، وإنما كان الناس يقفون على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو يُصرفوا . فلما ولى بنو العباس و بنى المنصور بيته اتخذ فى قصره بيوتاً للإذن ، فجرى الأمر على ذلك . وكانت أرزاق الكتاب فى أيامه ثلثمائة ثلثمائة ، وكذلك كانت فى أيام بنى أمية . وكان المنصور متقللاً متقشفاً لا يحب البذخ والرفاهية يَعدّ كل ما يأكل ويلبس نعمة عظمى بالقياس الى حاله قبل الخلافة . فهو شديد فى قتال أعدائه ، شديد فى نظامه وترتيبه ، يعرف قيمة الوقت لا يصرفه إلا فيما ينفع الدولة فيعمل فى خدمتها ليله ونهاره ، وكان شغله[٣] فى صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره ، وهو على انتباه لكل دقيق وجليل . وكان يقول ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، ثم عَض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه آه . قيل ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

استعمل المنصور فى ولاياته وأعماله قليلا من عمال الدولة البائدة وكثيراً من أهل بيته ورجالات العرب و بعض الفرس ، واستوزر ابن عطية الباهلى وهو من صميم العرب كما وزر له أبو أيوب الموريانى الخوزى وهو فارسى ، إلا أنه لا يترك

---

(١) مروج الذهب للسعودى (٢) لطائف المعارف للثعالبى (٣) تاريخ ابن الأثير

الوزير يعمل برأيه فقط بل ينهى إليه كل ما يعرض له من أمور الدولة قبل البت فيها . وطريقته فى حكم الأمصار طريقة اللامركزية ، أى طريقة الأمويين والراشدين من قبل . دعاه إلى اتخاذ هذه الطريقة تباعد ما بين أجزاء المملكة و بعد الشقة فى نقل الأخبار على وجه السرعة ، على ما كان فى عهده من انتظام البريد وحمام الزاجل تطير فى المهمات السريعة . كتب المنصور إلى مسلم بن قتيبة يأمره بهدم دور من خرج مع أحد الخوارج وعقر نخلهم . فكتب إليه : بأى ذلك نبدأ أبالنخل أم بالدور ؟ فكتب إليه أبو جعفر : « أما بعد فانى لو أمرتك بإفساد ثمرهم لكتبت إلىّ تستأذن فى أيّه نبدأ أبالبَرَنى أم بالشِّهريز [١] » وعزله .

لم ينفتق على المنصور فى ملكه الواسع خرق إلا سده ، لأن جيشه كثير ، وآلته تامة ، وقواده يعرفون منه أن من سياسته أنْ يقتل على التهمة ، فهم يصدعون بأمره كله ، ولا يخرمون منه مادة واحدة . إحتل الروم طرابلس الشام وظهر فى الشام رجل من أهل المنيطرة [٢] (١٤٢ — ١٤٣) وسمى نفسه ملكا ، ولبس التاج وأظهر الصليب ، واجتمع أنباط جبل لبنان وغيرهم ، ثم استفحل أمرهم فظهر عليهم الجيش العباسى ، فأمر أمير دمشق بإخراج من بقى فى الجبل وتفريقهم فى بلاد الشام وكورها ، فكان هذا التدبير الادارى مما انتقده الامام الأوزاعى بشدة ، لأنه إن كان من نصارى لبنان المعتدى على حقوق السلطان ، فإن منهم البرىء وليس من الجائز [٣] أن يُجْلَى عن أرضه و يعامل الطائع كالعاصى .

كان المنصور فى أكثر أموره وسياسته وتدبيره متبعاً فى أفعاله لهشام بن عبد الملك لكثرة ما كشفه من أخبار هشام وسيرته ، وكان يقول إنه أى هشام فتى القوم أى رجل بنى أمية . وقال : الملوك ثلاثة معاوية وكفاه حجاجه ، وعبد الملك

---

(١) البرنى تمر أصفر مدور وهو أجود التمر واحدته برنية . والشهريز ضرب من التمر فى نواحى البصرة (٢) تاريخ ابن عساكر (٣) فتوح البلدان للبلاذرى

وكفاه زياده ، وأنا ولا كاف لى . وكان يقول لأهل بيته : إنى لأجهل موضعى حتى أحذر منكم لأنه ما فيكم إلا عم وأخ وابن عم وابن أخ ، فأنا أراعيكم ببصرى وأهتم بكم بنفسى فالله الله فى أنفسكم فصونوا ، وفى أموالكم فاحتفظوا بها ، وإياكم والاسراف فيوشك أن تصيروا من ولد ولدى إلى من لا يعرف الرجل حتى يقول له من أنت .

وكان المنصور آية فى الاشراف على عماله وارادتهم على العدل، يهددهم بالعقوبات إذا ولاهم ، وأكثرهم يصححون ويناصحون ، ويختار أهل البلاء منهم . ولقد وفد عليه قاضى إفريقية ، وكان رفيقه فى طلب العلم ، فسأله كيف رأيت سلطانى من سلطان بنى أمية ، وكيف ما مررت به من أعمالنا حتى وصلت الينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيت أعمالا سيئة وظلماً فاشياً ، والله يا أمير المؤمنين ما رأيت فى سلطانهم شيئاً من الجور والظلم إلا رأيته فى سلطانك ، وكنت ظننته لبعد البلاد منك ، فجعلت كلما دنوت كان الأمر أعظم . فنكس الخليفة رأسه طويلا ثم رفعه وقال : كيف لى بالرجال ؟ . فقال القاضى : أليس عمر بن عبد العزيز كان يقول ان الوالى بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فان كان براً أتوه ببرهم ، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم . ووعظ الأوزاعى المنصور فقال له : إن السلطان أربعة : أمير يظلف[1] نفسه وعماله ، فذلك أجر المجاهد فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس .

كان المنصور يقول لابنه : يا أبا عبد الله ليس العاقل الذى يحتال للأمر الذى وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكنه الذى يحتال للأمر الذى غشيه حتى لا يقع فيه .

---

(١) يكف نفسه

وكتب إليه عامله على إرْمِينيَة يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما فى بيت المال فوقع فى كتابه : « إعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينهبوا . » ولقد حدث أن المنصور ولى المدينة رياح بن عثمان فخطب أهلها يهددهم ويقول : أنا الأفعى بن الأفعى ، أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة ، المبيد خضراءكم المفنى رجالكم ، والله لأدعنها بلقعاً لا ينبح فيها كلب . فوثب عليه قوم منهم وكلموه وقالوا : والله يا ابن المجلود حدّين لتكفن أو لنكفنك عن أنفسنا . فكتب الوالى إلى المنصور يخبره بسوء طاعة أهل المدينة فأرسل المنصور إلى رياح رسولا وكتب معه كتاباً يقول فيه : وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ليبدلنكم بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام . فلما قرىء عليهم نادوه من كل جانب كذبت يا ابن المجلود حدين ، ورموه بالحصا وبادر المقصورة فأغلقها . فدخل عليه أيوب بن سلمة المخزومى فقال : أصلح الله الأمير إنما تصنع هذا رعاع الناس . وقال بعض من حضر من وجوه بنى هاشم : لا نرى هذا ، ولكن أرسل إلى وجوه الناس وغيرهم من أهل المدينة فاقرأ عليهم كتاب المنصور ، فجمعهم وقرأ عليهم فقالوا : ما أمرتنا فعصيناك ولا دعوتنا فخالفناك . وانفض الأمر بسلام .

وعُنى المنصور بالعمارة فى ملكه يعمر الجسور والقنى والآبار ، ففشت فى أيامه أعمال العمران ، وحمل المهندسين من الآفاق إلى العراق خصوصاً لبناء مدينة بغداد ، واختار المنصور موقعها بنفسه لاحاطتها بدجلة والفرات بحيث يصعب على أكثر الجيوش تخطيها ، ولأن مواد الشام والجزيرة تأتيها بالفرات ، ومواد الموصل وما وراءها تحمل إليها فى دجلة . وبنى الرصافة لابنه المهدى ليصير ابنه فى مدينة ، وعسكر بالجانب الشرقى ، ويصير المنصور فى مدينة ، وعسكر بالجانب الغربى ، فلا يشغب الجند .

وحج المنصور آخر حجة وكان موقناً أنه لا يرجع من حجه ، زاعماً أنه عرف ذلك من المنجمين ، فقال لابنه وأشار إلى سَفَط له فيه دفاتر وعليه قفل لا يفتحه غيره : أنظر إلى هذا السفط فاحتفظ به ، فان فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة . فان حزبك أمر فانظر فى الدفتر الكبير فان أصبت فيه ما تريد وإلا ففى الثانى والثالث ، حتى تبلغ سبعة ، فان ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فانك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة أى بغداد ، وإياك أن تستبدل بها غيرها ، وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها ، فانك لاتزال عزيزاً مادام بيت مالك عامراً . وأوصى ابنه بأهل بيته وأن يحسن اليهم ويقدمهم ، ويوطىء الناس أعقابهم ، ويوليهم المنابر . وأوصاه بأهل خراسان خيراً لأنهم أنصاره وشيعته الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولته ، وأوصاه أن لايدخل النساء فى أمره ، وأن يعد الكراع والرجال والجند ما استطاع ، وأن يعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وأن يباشر الأمور بنفسه ، وأن يستعمل حسن الظن ويسىء الظن بعماله وكتابه ، وأن لايُبرم أمراً حتى يفكر فيه ، فان فكر العاقل مرآة تريه حسنه وسيئه . وقال له : يابنى لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس مَنْ ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختياره . وقال له أيضاً : إنى تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيراً لا يرجو إلا غناك ، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك ، ومسجوناً لا يرى الفرج إلا منك ، فاذا وليت فأذقهم طعم الرفاهية ، لا تُمدد لهم كلَّ المد .

هذا إجمال ما عمله أبو جعفر المنصور وما أوصى به ابنه لاتمام ما بدأ به من

التراتيب . وقد أبقت الأيام كتابا لابن المقفع فى الصحابة[1] أى أصحاب الخليفة ، كتبه إلى أبى جعفر أورد فيه ما يحتاجه الملك من الاصلاح ليسير على قواعد مطردة سليمة من الشوائب ، وأدركنا منه بعض المسائل الادارية التى كانت تشغل الأذهان فى ذاك الزمان . بدأه بتذكير الخليفة بجند خراسان فقال : إنهم جند لم يدرك مثلهم فى الاسلام وفيهم منعة وهم أهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاة ، فرأى أن يكتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شىء ، بالغاً فى الحجة ، قاصراً عن الغلو ، يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دهماءهم . وارتأى أن لا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وان منهم من المجهولين من هو أفضل من بعض قادتهم ، فلو التمسوا وصنعوا[2] كانوا عدة وقوة ، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ، ومن دونهم من العامة ، وأن يتعهد أدبهم فى تعليم الكتاب والتفقه فى السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى . وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زى المترفين وشكلهم مثل الذى يأخذ به أمير المؤمنين فى أمر نفسه . قال : ولا يزال يُطَّلع من أمر أمير المؤمنين ويخرج منه القول ما يعرف مقته للإتراف[3] والإسراف وأهلهما ، ومحبته القصد والتواضع ومن أخذ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عمن يكنزه ، بخلا أن ينفقه سرفاً فى العطر واللباس والمغالاة بالنساء والمراتب .

وأشار أن يوقت الخليفة للجند وقتاً يعرفونه فى كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له أنهم يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، هذا مع كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذى يخرج لهم ، وأن الجند يحتاجون إلى ما يحتاجون اليه من كثرة الرزق لغلاء السعر . والرأى أن يجعل بعض أرزاقهم طعاماً و بعضه علفاً يعطونه

---

(١) رسائل البلغاء نشرها المؤلف (٢) أحسن اليهم (٣) أترف الرجل أعطاه شهوته

بأعيانه . ورأى أن لا يخفى على أمير المؤمنين شىء من أخبار هذا الجند وحمالاتهم[١] وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف ، وأن يحتقر فى ذلك النفقة، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصّاح « فان ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فيصير جُنة للجهالة والكذب » ووصى بأهل المصرين الكوفة والبصرة قائلا إنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعة الخليفة ومعينيه ، وأن فى أهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس فى جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه . وأراده على أن يكتفى بهم، وأنه ما أزرى بأهل العراق إلا أن من وُلوا العراق كانوا أشرار الولاة ، وأعوانهم من أهل أمصارهم كذلك « فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول[٢] وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوه عليهم ، ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ممن دنا منهم أو وجدوه بسبيل شىء من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيثما وقعوا من صحابة خليفة أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد، وكان من رأى أهل الفضل أن يُقصدوا حتى يلتمسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا أو ينتفع بهم » « فنزلت الرجال عن منازلها لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً ، وأحلى ألسنة ، وأرفق تلطفاً للوزراء أو تمحلا لأن يثنى عليهم من وراء وراء » . ثم ذكره بإصلاح القضاء وما يصدر عن القضاة من الأحكام المتناقضة ورجا أن يوحد القضاء ويوضع للقضاة كتاب يرجعون اليه .

وتعرض لأهل الشام وذكّره أنهم أشد الناس مؤنة وأخوفهم عداوة وبائقة ،

---

(١) الحمالة كسحابة الدية والغرامة التى يحملها قوم عن قوم (٢) الفسل من الرجال الرذل الذى لا مروءة له ج أفسل وفسول

فمن الرأى أن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم فى الرأى والهوى ، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم ، ولا يعامل أهل الشام كما عاملوا أهل العراق من جعل فيئهم إلى غيرهم ، وتنحيتهم عن المنابر والمجالس والأعمال ، كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله فى السابقة والمواضع ، ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذى يصنعه أمراؤهم للعامة . » ورجاه أن يأخذ منهم أهل القوة والغَناء وخفة المؤنة والعفة فى الطاعة ، ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة . وقال بهذا المعنى فى إقامة العذر لأهل الشام على نزواتهم ، وأنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

وذكّره بأصحابه « الذين هم بهاء فِنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، والأعوان على رأيه ، ومواضع كرامته ، والخاصة من عامته » وأبان أنها مراتب طمع فيها الأوغاد « ممن لا ينتهى إلى أدب ذى نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأى ، مشهور بالفجور فى أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعاً يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيره من سروات قريش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ، ولا فقه فى دين ، ولا بلاء فى مجاهدة عدو معروفة ماضية متتابعة قديمة ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه فى شىء من الأشياء ، ولا عدة يستعد بها ، وليس بفارس ولا خطيب ولا علّامة ، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء . » ثم ذكّره بأمر فتيان أهل بيته وبنى أبيه وبنى علىّ وبنى العباس .

ووصفهم بأن فيهم رجالا لو متعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوها وكانوا عدة لأخرى .

ومن أهم ما ذكره به أمر الأرضين والخراج . قال : فليس للعمال أمر ينتهون اليه ولا يحاسبون عليه ، ويحول بينهم و بين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأنقون لها فى العمارة، و يرجون لها فضل ما تعمل أيديهم، فسيرة العمال فيهم إحدى ثنتين. إما رجل أُخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وَجَد. وإما رجل صاحب مساحة يستخرج ممن زرع و يترك من لم يزرع فيعمر من يعمر و يسلم من أخرب . وأراده على أن يعمل رأيه « فى التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة ، وتدوين الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد فى عمارة إلا كان له فضلها ونفعها» ليكون فى ذلك صلاح للرعية، وعمارة للأرض، وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال . قال : « وهذا رأى مؤنته شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر ، وليس بعد هذا فى أمر الخراج إلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ولم نره من أحد قبله ، من تخير العمال وتفقدهم » .

ثم ذكره بجزيرة العرب وأن يختار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم، لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التى قد رزق أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأى الذى هو بإذن الله حمى ونظام لهذه الأمور كلها فى الأمصار والأجناد والثغور والكور . ومما قاله فى خاتمة كتابه : « إن بالناس من الاستخراج[1] والفساد ما قد علم أمير المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم إلى أقواتهم التى يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والسير والنصيحة مؤدبون مقومون،

(١) الاستخراج والاختراح الاستنباط

يذكرون ويبصرون الخطأ ، ويعظون عن الجهل ، ويمنعون عن البدع ، ويحذرون الفتن ، ويتفقدون أمور عامة من هو بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهمّ ، ثم يستصلحون ذلك ويعالجون على ما استنكروا منه بالرأى والرفق والنصح ، ويرفعون ما أعياهم الى ما يرجون قوته عليهم ، مأمونين على سير ذلك وتحصينه ، بصراء بالرأى حين يبدو ، وأطباء باستئصاله قبل أن يتمكن ، وفى كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة إذا صُنعوا لذلك وتلطف لهم ، وأُعينوا على رأيهم ، وقووا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويبسطه لهم . وخطر هـذا جسيم فى أمرين أحـدهما برجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهل الفرقة إلى الأُلفة ، والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك فى أمر من أُمور العـامة إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا يهمس هامس إلا وأُذن شفيقة تصيخ نحوه » قال : « وقد علمنـا علماً لا يخالطه الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل أنفسها ، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها ، وأن خاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها » « فإذا جعـل الله فيهم خواص من أهـل الدين والعقول ينظرون اليهم ويسمعون منهم ، اهتمت خواصهم بأُمور عوامهم وأقبلوا عليه بجد ونصح ومثابرة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسبباً لاصلاح الصلاح من خواصهم ، وزيادة فيما أنعم الله به عليهم ، وبلاغاً الى الخير كله ، وحاجة الخواص الى الإمام الذى يصلحهم الله به كحاجة العامة الى خواصهم وأعظم من ذلك » .

هذه زبدة تقرير ابن المقفع للمنصور وفيه صورة جميلة مما تحتاجه إدارة البلاد من الإصلاح ، وما يجب القيام به لاستصلاح الجند والرفق بأهل الكوفة والبصرة ، والعناية بأهل العراق والعطف على الحجـاز واليمن واليمامة واختيار العمال الكفاة والرجوع الى أهل الرأى ، واصطناع أرباب العقل من أهل الشام وإشارة الى أن بغضهم بنى العبـاس من الأمور الطبيعية لأن الملك كان فيهم فانتقل الى غيرهم ،

وعرفه الطرق الى استصلاح العامة واختيـار الخاصة من الأصحاب والموالين الى غير ذلك من الأمور التى يمكن تطبيقها لعمران البلاد ورفع الحيف عن الخلق ، والانتفاع بالقوى المفيدة للرعية وأرضهم . ومن أهم ما وقفنا عليه هـذا التقرير أن الأمة لم تعدم فى إبان مجدها رجالاً يدلونهـا على مواطن الضعف من سلطانها ، ومعالجة الإصلاح بالعقل حتى يبلغ كماله ، والأخذ فى كل أمر من أمور الدولة بالحزم النافع والمصلحة الشاملة .

ادارة المهدى والهادى والرشيد .

ســار المهدى بالخلافة على الخطة التى اختطها له أبوه ، ينظر فى الدقائق من الأمور ، ويظهر أبهة الوزارة ، لكفاءة وزيره أبى عبيد الله بن معاوية بن يسار ، فإنه جمع له حاصل المملكة ورتب له الديوان[1] وقرر القواعد « وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة » اخترع أموراً منها أنه نقل الخراج الى المقاسمة . وكان السلطان يأخذ عن الغـلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وضبطت الأمور فى أيامه ضبطاً محكماً . وكان من جمـلة حظ المهدى أن يكون له وزراء من هذا الطراز العالى ، وهو يعتمد عليهم ويضع ثقته برجال دولته ، واستوزر أيضاً يعقوب بن داود فخرج كتاب المهدى الى الديوان أن أمير المؤمنين آخى يعقوب بن داود ، فلم يكن ينفذ شيء من كتب المهدى حتى يرد كتاب الوزير يعقوب معه الى أمينه بانفاذه . أى أن الخليفة ووزيره كانا يراقب أحدهما عمل صاحبه لتقرير ما تلزم به المصلحة قبل إمضائه .

ووضع المهدى ديوان الأزمّة ولم يكن لبنى أمية ذلك . ومعنى ديوان الأزمّة أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه . وقد كانت الدواوين قبل ذلك

---

(١) الفخرى لابن الطقطق

مختلطة[١] . والسبب فى وضع ديوان الأزمة أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع فكّر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمة ، وولى على كل ديوان رجلاً . وأنشأوا ديواناً سموه ديوان النظر أى المكاتبات والمراجعات تسهيلاً على أرباب المصالح . والديوان يقسم أربعة أقسام[٢] : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال ينظر فى الدخل والخرج .

والمهدى أول من جلس للمظالم من بنى العباس ، يقيم العدل بين المتظالمين ، ومشى على إثره الهادى والرشيد والمأمون . وكان المهتدى آخر من جلس للنظر فيها . وبسط المهدى يده فى العطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار . وأجرى المهدى على المجذّمين وأهل السجون فى جميع الآفاق ، وأمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن وبغداد ببغال وإبل . ولم يكن هناك بريد قبل ذلك ولا فى قطر من الأقطار . وكان وزيره « يرفع اليه النصائح فى الأمور الحسنة من أمور الثغور والولايات وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العزاب وفكاك الأسرى والمحبّسين والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعففين » واشتد المهدى على الزنادقة وقتل فى جملة من قتل ابن وزيره أبى عبد الله بن معاوية فاستوحش كل منهما من صاحبه فاعتزل الوزير الخدمة .

قال رجل للمهدى عندى نصيحة يا أمير المؤمنين فقال : لمن نصيحتك هذه لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك؟ . قال : لك يا أمير المؤمنين . قال : ليس الساعى بأعظم عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته ، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا تشفى غيظك أو عدواً فلا نعاقب لك عدوك . ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لنا

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (٢) الأحكام السلطانية للماوردى

ناصح إلا بما فيه رضى لله وللمسلمين صلاح ، فانما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ، ومن استتر عنا لم نكشفه ، ومن بادانا طلبنا توبته ، ومن أخطأ أقلنا عثرته ، فانى أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع العاجلة ، والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم . وهذا أرقى الأدب فى استمالة القلوب وحسن سياسة الناس ، ومن وفق إلى تطبيق هذه القواعد على أمته لا يحتاج إلى سلاح يخيفهم ولا إلى جند يضبطهم .

وأفضت الخلافة إلى الهادى ، والدواوين مدونة مرتبة ، فمن ديوان الخراج ، إلى ديوان الضياع ، إلى ديوان الزمام ، إلى ديوان التوقيع والتتبع على العمال ، إلى ديوان النظر أى المكاتبات والمراجعات ، إلى ديوان الرسائل ، إلى ديوان البريد والخرائط ، إلى غير ذلك من الدواوين . ومن أهم ما عمله الهادى فى عهده القصير أن منع أمه الخيزران من التدخل فى أمور السلطان لقضاء حوائج الناس [1] . وحلف أن يضرب عنق كل من يقف على بابها من قواده وخاصته وخدمه قائلا لها : أمالك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياك ثم إياك أن تفتحى فالك فى حاجة لملى أو ذمى ، فعملت والدته بما رسم لها ابنها . وكانت فى أول خلافة الهادى تفتات [2] عليه فى اموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر [3] والنهى . أما ابنها فكان من رأيه أنه « ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك » وقال : « ما للنساء والكلام فى أمر الرجال » ولما كان فى آخر أيامه من الدنيا استدعاها وقال لها : قد كنت نهيتك عن أشياء وأمرتك بأخرى على ما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك . ولم أكن عاقا بل كنت لك صائنا وبرا واصلا ، ثم قضى نحبه قابضا على يدها واضعا لها على صدره .

(١) مروج الذهب للمسعودى (٢) تاريخ الطبرى (٣) مروج الذهب للمسعودى

وبإبعاد الهادى النساء عن الوساطات والشفاعات عمل بوصية جده المنصور لابنه المهدى ، وجعل أمور الدولة تسير فى قواعدها المرعية على ما تقضى به أحكام الشرع والعقل ، ويراه الوزراء والأمراء والقضاة . وكان الهادى جباراً عظيما وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمدة المشهورة ، والقسى الموتورة ، فسلكت عماله طريقته ، ويمموا منهجه ، وكثر السلاح فى عصره .

سار الرشيد فى إدارته على نهج قويم ، وأعاد إلى الخلافة رونقها الذى كان لها على عهد جده المنصور ، وما كان بالمسرف ولا بالمبخِّل ، وسمى الناس أيامه « أيام العروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . وكانت دولته[1] « من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة : جبى الرشيد معظم الدنيا وكان أحدَ عماله صاحبُ مصر » وقلد وزارته يحيى بن خالد وقال له : « قد قلدتك أمر الدولة وأخرجته من عنقى اليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » ودفع اليه خاتم الخلافة . أما الولايات فقد فوضها لأمراء جعل لهم الولاية على جميع أهلها ينظرون[2] فى تدبير الجيوش والأحكام ويقلدون القضاة والحكام ، ويجبون الخراج ويقبضون الصدقات ، ويقلدون العمال فيها ، ويحمون الدين ويقيمون حدوده ، ويؤمون فى الجمع والجماعات أو يستخلفون عليها ، ويسيرون الحج من أعمالهم فان كانت أقاليمهم ثغراً متاخماً للعدو تولوا جهاده .

وما قسمت أعمال الدولة منذ انتقالها إلى بنى العباس تقسيمها فى زمن الرشيد ، ولذلك كان للخليفة وقت ليحج ووقت ليغزو ، ووقت ليصطاف ويرتبع فى الرقة ، ويترك قصر الخلد فى بغداد . ولقد كان الروم من جيوش الرشيد فى بلية فما غزتهم مرة إلا وحالفها التوفيق ، وبعث صاحب الروم جزية رأسه وبطارقته ، وجرى

---

(١) الفخرى لابن الطقطقى (٢) الاحكام السلطانية للماوردى

الفداء بين الروم والعرب حتى لم يبق من المسلمين أسير واحد بأيدى الروم ، وما اشتعلت فتنة فى أرجاء مملكته إلا أطفأها ، ومنها فتنة النزارية واليمانية فى الشام أى قيس ويمن عادوا إلى ما كانوا عليه فقتل منهم بشر كثير ، فأرسل عليهم ابراهيم ابن محمد المهدى والياً ففكر أن يعمد إلى طرق إدارية لقطع شأفة هـذه الغائلة ، فرأى أن يلهيهم بقشور ، ويتقرب من قلوبهم بما يستميلها ولا يصدعها ، فسار فى استقبالهم على قانون من « التشريفات » أو « البروتوكول » أرضاهم به وما تكلف شيئاً ، فقد أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين ، وأمره بتسمية أشرافهم ، وأن يقدم من كل حى الأفضل فالأفضل منهم ، فأمر بتصيير أعلا الناس من الجانب الأيمن مضرياً وعن شماله يمانياً ، ومن دون اليمانى مضرى ومن دون المضرى يمانى ، حتى لا يلتصق مضرى بمضرى ولا يمانى بيمانى ، فلما قدم الطعام قال قبل أن يطعم شيئاً : « إن الله عز وجل جعل قريشاً موازين بين العرب ، فجعل مضر عمومتها ، وجعل يمن خؤلتها ، وافترض عليها حب العمومة والخؤلة ، فليس يتعصب قرشى إلا للجهل بالمفترض عليه » ثم قال : يا « معشر مضر كأنى بكم وقد قلتم إذا خرجتم لإخوانكم من يمن قد قدّم أميرنا مضر على يمن ، وكأنى بكم يا يمن قد قلتم وكيف قدمكم علينا ، وقد جعل بجانب اليمانى مضرياً وبجانب المضرى يمانياً فقلتم يا معشر مضر إن الجانب الأيمن أعلا من الجانب الأيسر ، وقد جعلت الأيمن لمضر والأيسر ليمن ، وهـذا دليل على تقدمته إيانا عليكم ، ألا أن مجلسك يا رئيس المضرية فى غد من الجانب الأيسر ، ومجلسك يا رئيس اليمانية فى غد من الجانب الأيمن . وهذان الجانبان يتناوبان بينكما ، يكون كل من كان فى جهته متحولا عنه فى غده إلى الجانب الآخر ، فانصرف القوم كلهم حامداً . » وبمثل هذه القوانين الإدارية رجع السلام إلى الشام ست سنين ، واستراحت من العصبية الجاهلية وبأو[1] القبلية .

---

(١) البأو الكبر

قال الجاحظ[١]: حدثني ابراهيم بن السندى قال لما كان أبى بالشام والياً أحب أن يسوى بين القحطانى والعدنانى وقال : لسنا نقدمكم إلا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء ، وكلكم إخوة ، وليس للنزارى شيء وليس لليمانى مثله قال : وكان يتغدى مع جلة من جلة الفريقين ، ويسوى بينهم فى الإذن والمجلس .

ومن عمال الرشيد من أبدع طرقاً جديدة فى الادارة ، ولى عمر بن مهران مصر فقال هذا لغلامه : لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل فى الجراب . لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً . فجعل الناس يبعثون بهداياهم فجعل يرد ما كان من الألطاف[٢] ويقبل المال والثياب ، ويوقع عليها أسماء من بعث بها ، ثم وضع الجباية . وكان بمصر قوم قد اعتادوا المطل وكسر الخراج ، فاستأدى من الخراج النجم الأول والنجم الثانى ، فلما كان فى النجم الثالث وقعت المطالبة والمطل فأحضر أهل الخراج والتجار فطالبهم فدافعوه وشكوا الضيقة ، فأمر باحضار تلك الهدايا التى بعث بها إليه ونظر فى الأكياس وأحضر الجهبذ[٣] فوزن ما فيها وأجزى أثمانها عن أهلها ثم قال : يا قوم حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم اليها ، فأدوا الينا مالنا . فأدوا إليه حتى أغلق مال مصر ، فانصرف ولا يعلم أنه أغلق مال مصر غيره[٤] .

ولقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل ما دق وجل من شؤون الملك « ومن أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً » يصطنع الرجال ويحلم عن مساوىء تغتفر من رجاله ، ويسعى فى عمران البلاد ويكف الأذى عن الرعية ، ويأخذ بأيدى العلماء والباحثين ويجتمع اليهم ويأنس بهم . ولما رأى أن ملكه فى خطر محقق من نفوذ آل برمك وزرائه وخاصته لانصراف الوجوه اليهم لكثرة ما أحسنوا إلى الناس ولإجماع القاصى والدانى على

---

(١) الحيوان للجاحظ (٢) الألطاف الهدايا وأحدها لطف وألطفه بكذا أتحفه به وبره وتكون فى الغالب من المأكول والمشروب والمشموم (٣) الصراف أو قابض المال (٤) تاريخ الطبرى

حبهم حتى ساموا الخليفة أو أربوا عليه فى المكانة ، أمر بالقبض عليهم ومصادرتهم وقتلهم وما أراد أن يبوح بسر ما أتاه ، فرجم القوم الظنون به ، وذلك لأنه خافهم على ملكه ، وهم فرس لهم قديم يمتون إليه من الإمارة ، والفرس يحاولون منذ القرن الأول أن يعيدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجوه عن صبغته العربية . ونشأت من قتلهم قصة طويلة سداها ولحمتها المبالغة ، بل الاختلاق ، شغل الرشيد بها الناس عن نفسه وعن سياسة بلاده .

ووضع الرشيد عن أهل السواد العشر الذى كان يؤخذ منهم بعد النصف ، وترك بعض أهل الضياع فى فلسطين أرضهم فوجه اليهم أحد كبار قواده فدعا قوماً من أكرتها ومزارعيها إلى الرجوع اليها ، على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم ، فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف . وجاء قوم منهم بعدُ فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه فهم أصحاب الردود . والرشيد يسد كل خلل فى مملكته ، ويهتم كل الاهتمام أن يخفف عن الفلاحين . وكان رجاله لا يألونه نصحاً لأنه يهتم لكل ما ينفع . وفى الرسالة التى كتبها له قاضيه أبو يوسف فى الخراج نموذج من هذه العناية . ومما قال فيها : وقد بلغنى أن عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم فى الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحلُّ ، وإنما ينبغى أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح ، فاذا وليتها رجلا ووجد من قبله من يوثق بدينه وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ما تجرى ، ولا تجرى عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة . . . ويكون من يولى فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأى مؤتمناً على الأموال ، إنى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج ، إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناصية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك . . . وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفا لأهل عمله ولا محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم ، ولكن يلبس لهم جلبابا

من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء ، من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر . والعـدل على أهل الذمة و إنصاف المظلوم ، والشدة على الظالم والعفو عن النـاس . . . فان كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فانه يحمل على أنه قد أُمر به وقد أمر بغيره ، و إن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، و إن لم تفعل هـذا بهم تعـدوا على أهل الخراج ، واجترأوا على ظلمهم وعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم ، وإذا صح عنـدك من العامل والوالى تعدٍ بظلم أو عسف وخيـانة لك فى رعيتك واحتجان شيء من الفيء ، أو خبث طعمته أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمر رعيتـك أو تشركه فى شيء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تروّع غيره من أن يتعرض لمثل ما تعرض له .

وقال : «بلغنى عن ولاتك على البريد والأخبار فى النواحى تخليط كثير ومحاباة فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاة والرعية ، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية وستروا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتبوا فى الولاة والعمال بما لم يفعلوا إذ لم يرضوهم وهذا مما ينبغى أن تتفقده ، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار .» وكيف ينبغى أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويجرى لهم من الرزق من بيت المال وليدرّ عليهم ، وتقدم إليهم فى أن لا يستروا عنك خبراً عن رعيتك ولا عن ولاتك ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليك خبراً ، فمن لم يفعل منهم فنكل به ، ومتى لم يكن أصحاب البُرُد والأخبار فى النواحى ثقات عدولا فلا ينبغى أن يقبـل لهم خبر فى قاض ولا وال . إنما يحتاط بصاحب البريد على القاضى والوالى وغيرهما فاذا لم يكن عدلا فلا يحل ولا يسع استعمال خبره ولا قبوله (١)

---

(١) الخراج لأبي يوسف

بمثل هذا اللسان يتلطف أبو يوسف وينصح لخليفته فى اختيار عمال الخراج والأمناء على الاخبار لمراقبة العمال والولاة والقضاة . على أن الرشيد أخذ العمال [١] والتناء والدهاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبّلين [٢] وكان عليهم أموال مجتمعة فطولبوا بصنوف من العذاب . وهذا ما دعا بعض الناس فى الدولة العباسية الى أن يقولوا إن بنى أمية [٣] كانت مصائبهم فى أديانهم وأن جباياتهم وأموالهم سليمة لم يظلموا فى العشر والخراج ، أما بنو العباس فهم سلامة أديانهم كانت أموالهم فاسدة وجباياتهم بالظلم والغش . وأوضاع كل أمة تثقل وتخف فى الميزان بحسب غَناء القائمين على تطبيقها ، يزنون بالقسطاس المستقيم او يُخْسرون إذا كالوا أو وزنوا ولى الرشيد احدهم بعض اعمال الخراج . فدخل على الرشيد يودعه ، وعنده يحيى وجعفر بن يحيى ، فقال الرشيد ليحيى : اوصياه ، فقال له يحيى : وفِّر واعمر . وقال له جعفر : أنصف وانتصف . فقال له الرشيد : إعدل وأحسن .

وانتهى إلى علم الرشيد أن عامل الأهواز قد اقتطع مالاً كثيراً من مال البلد . ولما سأله الرشيد أجاب : وحلفت بأيمان البيعة أنى قد نصحت وشكرت الصنيعة ووفرت وما أسرفت ولا خنت ، والله لأصدقنك عن أمرى : عمرت البلاد واستقصيت حقوقك من غير ظلم ، ووفرت أموالك وفعلت ما يفعله الناصح لسيده . وكنت إذا كان وقت بيع الغلات جمعت التجار ،فإذا تقررت العطايا أنفذت البيع وجعلت لى مع التجار فيه حصة ، فربما ربحت وربما وُضِعت . الى أن اجتمع لى من ذلك ومن غيره فى عدة سنين عشرة آلاف ألف درهم فاتخذت أزجاً [٤] كبيراً عقد بالجص والآجر كأنه مجلس، وجعلت بين يديه موضعاً أقعد فيه وعبيت البدر شيئاً بعد شيء فى الأزج ثم سددته ، وهو بحاله ما أشك أن العنكبوت قد

(١) تاريخ اليعقوبى (٧) المقبلون ملتزمو الجباية من الولاة ، والدهاقين التجار أو رؤساء الاقاليم ، والتناء السكان جمع تانىء (٣) نشوار المحاضرة للتنوخى (٤) بيت يبنى طويلا

نسجت على ما فيه ، فخذها وحوّل وجهك إلى عبدك . فقال الرشيد : بارك الله لك في مالك ، فارجع الى عملك ودار رعيتك .

ولما دخل عليه عامله بدمشق يرسف في قيده قال له الرشيد : وليتك دمشق وهي جنة بها غُدر تتكفأ أمواجها على رياض كالزرابي واردة منها كفايات المؤن الى بيوت أموالى فما برح بك التعدى لأرفاقهم فيما أمرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهة ولكن وَليت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا الى ميدان التعدى، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بإضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة . فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساءتى .

وكان الرشيد إذا أحسّ من عامل له خيانة دبر له من صائب رأيه ولطف حيلته ما يدل على بعد نظره وحسن إدارته وجميل تدبيره ، وشدة غيرته على مصلحة ملكه ، فيمسك أقصر الطرق الى القضاء على الفتن الملحوظة والغوائل المستجنة ، فيضرب على المسيء بسيفه وسنانه ، كما يغمر المحسن بإنعامه وإحسانه . أراد مرة أن يعزل على بن عيسى عن خراسان — وخراسان كثيراً ما كانت تشغل بال الرشيد كما شغلت بال أسلافه — فدعا هرثمة بن أعين مستخلياً به فقال : إنى لم أُشاور فيك أحداً ، ولم أُطلعه على سرى فيك . وقد اضطربت علىَّ ثغور المشرق ، وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى إذ خالف عهدى ونبذه وراء ظهره . وقد كتب يستمد ويستجيش ، وأنا كاتب اليه أُخبره أنى أمده بك، وأُوجه اليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن إليه قلبه ، وتتطلع إليه نفسه . وأكتب معك كتاباً بخطى فلا تفتضه ، ولا تطلعن فيه حتى تصل الى مدينة نيسابور، فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه إن شاء الله . وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه الى على بن عيسى بخطى ليتعرف ما يكون منك ومنه ، وهوّن

عليه أمر على فلا تظهرنه عليه ، ولا تعلمنه ما عزمت عليه ، وتأهب المسير وأظهر لخاصتك وعامتك أنى أوجهـك مدداً لعلى بن عيسى وعوناً له . ثم كتب الى على ابن عيسى كتابا بخطه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن الزانية ، رفعت من قدرك ، ونوهت باسمك، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت ابناء ملوك العجم حوَلك وأتباعك ، فكان جزائى أن خالفت عهدى، ونبذت وراء ظهرك أمرى ، حتى عثت فى الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته ، بسوء سيرتك ، ورداءة طُعمتك، وظاهرخيانتك، وقد وليت هرثمة بن أعين مولاى ثغر خراسان، وأمرته أن يشدد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ولا حقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله . فان أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغيَّر ، وبدل وخالف ، وظلم وتعدى وغشم ، إنتقاما لله عز وجل بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للتى لا سوى لها ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً . »

وكتب عهد هرثمة بخطه ونصه « هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه ، أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماما فى جميع ما هو بسبيله . فيحل حلاله، ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله، وأولى العلم بكتاب الله ، أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ، ويعزم له على رشده ، وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشد عليهم وطأته ، ويحل بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفىء المسلمين ، فاذا استنظف ما عندهم وقبلهم من ذلك ، نظر فى حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يردوه اليهم، فان ثبت قبلهم حقوق لأمير

المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته، حتى يبلغ بهم الحال التى إن تخطاها بأدنى أدب تلفت أنفسهم و بطلت أرواحهم، فاذا خرجوا من حق كل ذى حق، أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء، وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله. فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت اليك، فانى آثرت الله ودينى على هواى وارادتى، فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك. ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك ما لا يستوحش معه الى امر يريبهم وظن برعيهم، وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم، ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره ان شاء الله. هذا عهدى وكتابى بخطى وأنا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سماواته وكفى بالله شهيداً. وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته».

أمثلة تكشفت بها حقيقة إدارة الرشيد و بعد غوره فى تراتيبه. ولقد رفع اليه أن رجلا بدمشق من بقايا بنى أمية [١] عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والأملاك مطاعا فى البلد له جماعة وأولاد ومماليك وموال، يركبون الخيل، ويحملون السلاح، ويغزون الروم، وانه سمح جواد كثير البذل والضيافة، وانه لا يؤمن منه، فعظم ذلك عليه، فاستدعى منارة صاحب الخلفاء وأمره بالخروج الى دمشق وضم اليه مائة غلام وأجّله لذهابه ستة وايابه ستة ويوما لقعوده، وامره ان يتفقد دار الرجل وجميع ما فيها وولده واهله وحاشيته وغلمانه، وما يقولون وقدر النعمة والحال والمحل. فجاءه به فى الميعاد المضروب وقص عليه ما سمعه ورآه. فعرف الرشيد ان الرجل محسود على النعمة مكذوب عليه، فأدناه واعتذر عن استدعائه، وقال له: سل ما تحتاج اليه من مصالح جاهك ومعاشك. فقال: عمال امير المؤمنين منصفون وقد

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى

استغنيت بعدله عن مسألته من ماله ، وأمورى منتظمة وأحوالى مستقيمة ، وكذلك امور اهل البلد بالعدل الشامل فى ظل دولة أمير المؤمنين . فأعاده الى بلده على خير حال ولم يترك للوشاة سبيلا اليه .

ولقد توسع الرشيد فى توسعة سلطة عماله ، ليستقيم أمر البلاد ، فقد شخص الفضل بن يحيى الى خراسان والياً عليها فبنى فيها المساجد والرباطات ، واتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل ولاءهم لهم ، وذكروا أن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقى بخراسان على أسمائهم ودفاترهم . كتب والى إرمينية للرشيد الى وزيره إن قوماً صاروا الى سبيل النصح ، فذكروا ضياعاً بإرمينية قد عفت ودرست ، يرجع منها الى السلطان مال عظيم ، وأنى وقفت عن المطالبة حتى أعرف رأيك فكتب اليه : « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة ، وألسنة السعاة فى أيامنا كليلة خاسئة ، فإذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديوانك ، فإنا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لاحياء الأعلام الدائرة ، وجنبنى وتجنب بيت جرير يخاطب الفرزدق :

وكنتَ إذا حللت بدار قوم رحلتَ بخزية وتركت عاراً

وأجر امورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدة تنتهى وأيام تنقضي ، فإمّا ذكر جميل ، وإما خزى طويل . »

ومما يعد فى توسيع السلطة أن قاضى الرشيد أبو يوسف كان أول من دعى فى الاسلام قاضى القضاة ولم يقع[١] هذا الاسم على غيره كما وقع له فيه ، فإنه كان قاضى المشرق والمغرب ، فهو قاضى القضاة على التحقيق ، والقضاة يعينون باقتراحه ،

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

وكان القاضى فى العواصم لا يتناول أقل من ألف دينار فى السنة ، وأجرى على قاضى مصر[١] مائة وثمانية وستين ديناراً فى كل شهر وهو أول قاض أُجرى عليه هذا ، وأجروا بعد ذلك على القاضى سبعة دنانير كل يوم ثم صار أبو الجيش يجرى على قاضيه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكانوا يجرون على القضاة والعمال الأرزاق من بيت المال من جباية الأرض أو من خراجها والجزية .

والرشيد لا يضن بالمال فى سبيل الدولة ، والمال وحده لا يكفى الخليفة أمر الفتوق التى تحدث إن لم يكن لها من يوثق بأمانته فى تلافى شرها ، والرشيد على كثرة بذله المأثور خلف من المال « ما لم يخلف[٢] أحد مثله مذ كانت الدنيا ، وذلك أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجوهر والدواب سوى الضياع والعقار ما قيمته مائة ألف ألف وخمسة وعشرون ألف ألف دينار » قال ابن الأثير كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا فى بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك .

ادارة الأمين والمأمون

لم يعرف التاريخ شيئاً من التدبير الذى جرى عليه الأمين بعد الرشيد ، لأنه كان يعبث وقلما يجد ، شغل نفسه والأمة معظم أيامه بالفتن ، لنزع ولاية العهد من أخيه المأمون وتوسيدها إلى ابنه الرضيع ، وكان من أثر هذا التطاحن بين الأخوين أن خرب قسم عظيم من مدينة دار السلام ، دع غيرها من الأرباض والولايات ، وسالت سيول الدماء ، وفرق الأمين ما فى خزائن الدولة من الأموال والأعلاق والذخائر ، حتى دالت الخلافة وضاعت بعد الرشيد ، ولم يرزق الأمين وزراء كوزراء أخيه : طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين والحسن بن سهل والفضل بن سهل ثم أحمد

---

(١) أخبار الولاة والقضاة للكندى (٢) لطائف المعارف للثعالبى

ابن يوسف وعمرو بن مسعدة وأضرابهم ، بل اصطنع من نبذهم أبوه الرشيد ، وكان أقصاهم لسوء سيرتهم ، فربح المأمون برجاله وعقله ، وخسر الأمين برجاله وضعف تدبيره .

وبينا كان المأمون فى مرو ينظر فى أمور الدولة كان الأمين يوجه « إلى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ونافس فى ابتياع فُره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه . . . وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه . . . وأمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق فى عملها مالا عظيما » .

ولما حصر الأمين وضغطه[1] الأمر قال : ويحكم أما أحد يستراح اليه ! فأتوه برجل من العرب فلما صار اليه قال له : أشر علينا فى أمرنا . قال له : يا أمير المؤمنين قد بطل الرأى اليوم وذهب ، ولكن استعمل الأراجيف فإنها من آلة الحرب . فكان يضع له الأخبار فإذا مشى الناس تبينوا بطلانها . فالأمين كان يسف إلى ذلك ، وأخوه المأمون يعمد إلى القواد والعظماء والعلماء الأعلام يستشيرهم ويأتمنهم .

وغلط المأمون لأول أمره ثلاث غلطات ادارية : منها أنه لم يأت الى عاصمة ملكه عقيب مقتل أخيه فقضى فى الطريق من مرو الى بغداد سنتين بعد أن أقام بمرو تسع سنين ، وكان عليه أن يبادر لجمع القلوب وكسر شوكة المتلاعبين من القواد . وبايع المأمون بولاية عهده إلى على بن موسى الرضا وهو فى خراسان فأخرج الخلافة من آل العباس ، حتى أجمعوا على خلافه وبايعوا بالخلافة ابراهيم بن المهدى فى بغداد وخلعوا طاعته . ومنها أنه سمع لوشاية وزيره الفضل بن سهل فى هرثمة بن

(١) تاريخ الطبرى

أعين الذى كان بحسن تدبيره العامل الأول فى القضاء على جيوش أخيه الأمين وإيصال الخلافة للمأمون . وكانت أتت هرثمة كتب المأمون أن يلى الشام والحجاز فأبى وقصد الى المأمون فى خراسان [١] « إدلالا منه عليه لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم عنه من الأخبار وألا يدعه حتى يرده الى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ، ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه ، فعلم الفضل ما يريد فقال للمأمون : إن هرثمة قد أنغل عليك البلاد والعباد وظاهر عليك عدوك . » ولما أدخل هرثمة على المأمون وقد اشرب قلبه ما اشرب من ناحيته ذكر له ما بلغه عنه مما افتراه الفضل ، وذهب هرثمة يتكلم ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قرّف به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر به فوجىء على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه ثم قتل .

وكاد المأمون يغلط غلطة رابعة بتخليه عن طاهر بن الحسين: « الذى أبلى [٢] فى طاعته ما أبلى وافتتح ما افتتح وقاد اليه الخلافة مزمومة حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصيّر فى زاوية من الأرض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده » وتنوسى حتى لا يستعان به فى شىء فى الحروب واستعين بمن هو دونه أضعافاً . لكن عقل المأمون تدارك هذه الغلطات ، وما إن جاء بغداد حتى قبض على قياد الملك قبضة الرجل الحازم ، وظهرت مواهبه ونبوغه فى السياسة والادارة فى زمن غلبت الفتنة على قلوب الناس فاستعذبوها ، ولا مال له يرضيهم به . وقال يتخوف هائجا يهيج و بيوت المال فارغة : إن الناس فى هذه المدينة على طبقات ثلاث: ظالم ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا واحساننا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينتصف إلا بنا ، ومن كان لا ظالما ولا مظلوما ، فبيته يسعه ، وما كان إلا كما قال .

(١) تاريخ الطبرى (٢) تاريخ الطبرى

وقيل إن المأمون بكى لما رأى طاهر بن الحسين . فلما سئل عن سبب بكائه قال إني ذكرت محمداً أخي « الأمين » وما ناله من الذلة فخنقتني العبرة ، فاسترحت إلى الافاضة ولن يفوت طاهراً مني ما يكره ، فبلغ ذلك طاهراً فركب الى احمد بن أبي خالد فقال له : إن الثنـاء مني ليس برخيص ، وإن المعروف عنـدي ليس بضائع ، فغيبني عن عينه . فسعى له بتولية خراسان ، وكان قبل ولايته ندبه الحسن ابن سهل للخروج الى محاربة نصر بن شبث فقال : حاربت خليفة وسقت الخلافة الى خليفة وأؤمر بمثل هذا ، وإنما يجب أن توجه لهذا قائداً من قوادي . ثم وسد المأمون الى عبد الله بن طاهر وهو ابن طاهر بن الحسين الرقة وحرب نصر بن شبث وولاه البـلاد التي في طريقه ليكون حكمه نافذاً مهيباً مهيأة له أسباب الظفر من كل وجه . وذلك لئلا تتعارض السلطات ، ويجمع القائد في العـادة بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية ، وهـذا من دقيق سياسة العباسيين . ولما وسدت الى عبد الله بن طاهر قيادة الجيش لقتال الخارجي ابن شبث كتب اليه أبوه طاهر بن الحسين كتابا تنازعه [1] الناس وكتبوه وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرىء عليـه فقال : ما أبقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيـا والتدبير والرأي والسياسة واصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به ، وتقدم وأمر أن يكتب بذلك الى جميع العمال في نواحي الأعمال .

ومما ورد في هذا الـكتاب في الادارة : ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبداء والظنون السيئة بهم مأثم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سـوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يعنك [2] ذلك على اصطناعهم ورياضتهم . . . ولا يمنعنك حسن

(١) تاريخ الطبري (٢) رواية ابن الأثير يغنيك ذلك عن اصطناعهم

الظن بأصحابك والرأفة برعيتك ، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، ولتكن المباشرة لأمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصلحها ، والنظر فى حوائجهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك ، وأقم حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاوَن به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة، فإن فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات ، يسلم لك دينك ، وتستقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً ففِ به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها . واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله ، وأقص أهل النميمة ، فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها[1] تقريب الكذوب ، والجرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمتها ، لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها ، ولا يسلم له صاحب ولا يستقيم لطيعها أمر . . . واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنها رأيك ، واظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوفاء والحلم ، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله . . . ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تذخر وتكنز البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعيـة ، وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة لملهوفهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر ، وإذا كانت فى إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، واعتقد فيه العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الاسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير

---

(١) رواية الأثير : فساد أمورك في عاجلها وآجلها .

المؤمنين قِبَلك حقوقهم ، وأوفِ رعيتك من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرّت النعمة عليك ، واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك وأطيب نفساً لكل ما أردت . .

وعاد فوضع له قواعد فى حكمة الأخلاق لا تصلح بغيرها الولاية فقال : « ولا تحقرن ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ، ولا تداهنن عدواً ، ولا تصدقن نماماً ، ولا تأمنن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تبتغين عادياً ، ولا تحمدن مرائياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلا فقيراً ، ولا تجيبن باطلا ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تخلفن وعداً ، ولا ترهقن هُجرا ، ولا تظهرن غضباً ، ولا تأتين بذخا ، ولا تمشين مرحاً ، ولا تركبن سفهاً ، ولا تفرطن فى طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عتاباً ، ولا تغمض عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا .

قال : وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن فى مشورتك أهل الذمة والنحل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فان ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح . واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا ، فان رعيتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم . . وتفقد أمور الجند فى دواوينهم ومكاتبهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم فى معايشهم ، يذهب الله بذلك فاقتهم ، فيقوى بك أمرهم ، وتزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً . . .

ثم ذكر له القضاء وإقامة العدل فيه « لتصلح الرعيــة ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة . الى أن قال ـ بعد أن عرفه ما يفعل لحقن الدماء واعطاء الحقوق ـ : وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومَنَعة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاهديهم ذلا وصَغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل النـاس كلهم على مر الحق ، فان ذلك أجمع لأُلفتهم ، وألزم لرضا العامة . واعلم انك جُعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً . وإنما سمى أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم وقيمهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقـــدرتهم ، وتنفقه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم . فاستعمل عليهم فى كور عملك ذوى الرأى والتـدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم فى الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند اليك . ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنـه صارف ، فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحدوثة فى عملك ، وأحرزت به المحبة من رعيتك ، وأعنت على الصلاح ، فدرّت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كورك ، فكثر خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتبـاط جندك ، وارضاء العـامة بافاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضىّ العـدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعُدة ، فنافس فى هذا ولا تقدّم عليـه شيئاً تحمد ، مَغَبة أمرك إن شاء الله .

« واجعل فى كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، و يكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله ، معاين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فان رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع ، فأمضه و إلا فتوقف عنه ، و راجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته . . .

« وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فان لغدٍ أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت . واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، و إذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فيشغلك ذلك حتى تعرض عنه ، فاذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك ، و بذلك أحكمت أمور سلطانك . وانظر أحرار الناس وذوى الشرف (١) منهم ممن تستيقن صفاء طويتهم ، وشهدت مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن اليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤونتهم ، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مساً ، وأفرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة اليك ، والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أحفى مسألة ، و وكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء و يتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقا من بيت المال . . .

« وأجر للأضراء (٢) من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم ، والحافظين لأكثره فى الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم ، وقواما يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى

---

(١) هذه رواية الطبرى وفى رواية ابن الساعى ذوى السن (٢) رواية ابن الساعى « الاضراب » بدل الاضراء

سرف فى بيت المال . واعلم أن الناس إذا أُعطوا حقوقهم وفضل أمانيهم ، لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم ، دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم ، طمعاً فى نيــل الزيادة ، وفضل الرفق منهم ، وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه منها ، ما يناله به مؤونة ومشقة .

« وأكثر الاذن للناس عليك وأبرِز للناس وجهك ، وسكّن لهم حواسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بِشرك ، ولن لهم فى المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس ، والتماس الصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ، فان العطية على ذلك تجارة مربحة . . . » « واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وينفقون منها ، ولا تجمع حراما ، ولا تنفق إسرافا ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وايثار مكارم الأمور ومعاليها . وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليــك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك اليك فى سر ، واعلامك ما فيه من النقص ، فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك . »

« وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقّت لــكل منهم فى كل يوم وقتاً يدخل به عليــك بكتبه ومؤامرته ، وما عنده من حوائج عمالك وأمور كورك ورعيتك ، ثم فرغ لــما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر فيه والتدبر له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه . ولا تمنّن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك . . . »

أرأيتم هذا الــكلام الآخذ بمجامع الفوائد الذى كتب به طاهر بن الحسين الى ابنه قبل خمسين ومائة وألف سنة فى هذا الموضوع الجليل الذى فيــه قوام الممالك

والشعوب ؟ أتظنون أن هذه الأفكار يصدر اليوم أحسن منها عن أكبر عالم إدارى عارف بطبائع النـاس وما يصلحهم ، والممالك وما ينبغى لهـا ؟ وعرفنا من هذا الـكتاب مكانة طاهر بن الحسين من قيام الدولة والدفاع عن حوزة الخلافة ، وأن المأمون الذى يكون من جملة قواده ورجال دولته هذا العظيم لا بد أن يكون فى عمله جدّ عظيم . وقد تقدم معنا أن عبـد الله بن طاهر نُدب لحرب نصر بن شبث ، فلما استأمن هذا وصفت البلاد ، جاء الشام فعمل أحسن الأعمال لراحة أهلها واستقراها بلداً بلداً ، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبـائل والعشائر والصعاليك والزواقيل [١] ، وهدم الحصون وحيطان المدن ، وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمهم جميعاً ، ونظر فى مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج ، ثم قصد الى مصر فضرب على أيدى الخوارج فيهـا ، وربطها بالخلافة ربطا محكما . وكان نحو [٢] الخمسة عشر ألفاً من أهل قرطبة جلوا من الأندلس بعـد وقعة الربض فى سنة ٢٠٢ فانتهوا إلى الاسكندرية فملـكوها مُدَيْدة ، فلما ورد عبد الله بن طاهر على مصر صالحهم على التخلى عنهـا على مال بذله لهم ، وخيرهم فى النزول حيث شاءوا من جزائر البحر فاختاروا جزيرة اقريطش من البحر الرومى .

وكان من تربية طاهر بن الحسين أن جاء ابنـه كما قال له أحمد بن يوسف الـكاتب موفقاً فى الشدة واللين فى مواضعهما ، ولا يعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدله ، ولا عفا بعـد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوه . قال : ولقلّ ما رأينا ابن شرف لم يُلْقِ بيده متكلا على ما قدّمت له أبوته . قال يونس بن عبد الأعلى : أقبل الينا (فى مصر) فتى حدث من المشرق ، يعنى ابن طاهر ، والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحيـة من بلادنا غالب ، والناس فى بلاء ، فأصلح الدنيا وأمّن البرىء وأخاف السقيم واستوثقت له الرعيـة بالطاعة . ولقـد قال المأمون لبعض

(١) الزواقيل اللصوص (٢) الحلة السيراء لابن الآبار

جلسائه : من أنبل ما تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟ فجالوا بما فتح الله عليهم ، و بعضهم مدحه وقرظه . فقال : ذلك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر دخل مصر وهى كالعروس الكاملة ، فيها خراجها و بها أموالها جمة ، ثم خرج عنها فلو شاء الله أن يخرج منها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل ، ولقد كان لى عليه عين ترعاه ، فكتب إلىّ إنه عرضت عليه أموال لو عرضت علىّ أو بعضها لشرهت اليها نفسى ، فما علمته خرج من ذلك البلد إلا وهو بالصفة التى قدمها فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس . فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى فى الاسلام ، فالحمد لله الذى جعله غرس يدى وخريج نعمتى .

هكذا كان عدل العمال وشرف أنفسهم، وهكذا كان علمهم و بعد نظرهم فى عصر المأمون، فلا يستغرب بعد ذلك ما ذكر من قصة[1] تلك المرأة القبطية التى نادت المأمون لما مر بقريتها طاء النمل [2] من أرض مصر وسألته أن يقبل قِراها ، ليجعل لها الشرف ولعقبها بذلك ، وأن لا يشمت بها الاعداء ، و بكت بكاء كثيراً ، فنزل عليها بجيشه و رحاله وكانت ضيافتها من فاخر الطعام ولذيذه . وفى الصباح بعثت إلى المأمون بعشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فى كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وأمرها باعادته فقالت: لا والله لا أفعل. فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله. فقال : هذا والله أعجب و ربما عجز بيت المال عن مثل ذلك! فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن فى بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت: يا أمير المؤمنين هذا — وأشارت إلى الذهب — من هذا — وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض— ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من هذا شىء

---

(١) خطط المقريزى (٢) طاء النمل يقال لها اليوم طناول (بضم الطاء وتشديد النون) وهى مركز اجا من مديرية المنصورة

كثير فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعفاها من بعض خراج أرضها .

وفى الحق إنه لم يعرف عصر كعصر المأمون وعصر أبيه وأخيه الأمين فى استفاضة الأموال فى كل طبقة من طبقات الأمة . فقد أنفق الحسن بن سهل على عرس ابنته بوران على المأمون أربعة آلاف ألف دينار ، وماتت الخيزران أم الهادى والرشيد (١٧٣) وكانت غلتها ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، ومات محمد بن سليمان وقبض الرشيد امواله بالبصرة وغيرها ، فكان مبلغها نيفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ، وكان محمد بن سليمان يغلُّ كل يوم مائة ألف درهم . وأنفق جعفر بن يحيى على داره التى ابتناها فى دار السلام نحواً من عشرين ألف ألف درهم . وغنى ابراهيم بن المهدى محمداً الأمين صوتاً فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم . فقال ابراهيم : يا سيدى قد أمرت لى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم فقال : وهل هى إلا خراج بعض الكور !

ووقع للمأمون غير مرة أن كان يخف إلى الأقطار التى تنشب فيها فتنة جديدة لا يعتمد على رجاله على كثرة الصالحين منهم للعمل . ولما انتقضت أسفل الأرض كلها بمصر عربها وقبطها ، وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة ، وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم ، هبط المأمون مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، وسخط على عامله عيسى بن منصور وأمر بحل لوائه وأمره بلباس البياض وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعالك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتمونى الخبر ، حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد . وقال : ما فتق علىّ قط فتق فى مملكتى إلا وجدت سببه جور العمال . وقال لمن رفع اليه خبراً فى عامل : إنى امرؤ أدارى عمالى مداراة الخائف ، و بالله ما أجد إلى أن أحملهم على المحجة البيضاء سبيلا ، فأعملْ على حسب ذلك ولنْ لهم تسلم منهم .

وخص المأمون بالإغضاء عن المساوىء ، والتغابى عن التافهات ، وحمل الناس

على محمل الخير ، وجهد أن يسوق اليهم كل خير ، وهذا مع كثرة عنايته بأخذ أخبار عماله ورعيته ، وقيل انه كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة يتفقد بها أحوال الناس ومن يحبه و يبغضه ومن يفسد حرم المسلمين ، وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه كلها ، وكان يدور ليلا ونهاراً مستتراً ، ومع كل هذا كان المأمون أبداً إلى جانب المسامحة والعفو ، وتتجافى نفسه العظيمة عن كل ما تشتم منسه رائحة الطمع والاسفاف إلى أموال العمال ، وكادت المصادرات والنكبات تبطل فى أيامه ولا ينكب إلا من حاول نقض بنيان الدولة . ولقد رفع اليه أن عمرو بن مسعدة أحد وزراء دولته خلف ثمانين ألف ألف درهم ، أو نحو ثمانية ملايين دينار ، فوقع على الرقعة : « هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه . »

وكأنه استفظع القتل الذى يصيب كل عدو للدولة فبسط جناح الرحمة وقلل من إهلاك النفوس ما أمكن . وأقام نفسه مقام رجل يعرف الطباع البشرية وينصف خصومه وأعداءه ويحسن اليهم ولا يسىء ، كتب صاحب بريد همدان(١) إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطآ على إخراج مائتى ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما ، فوقع المأمون : إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية ، فان السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شىء كمن قبله وأجازه ، فانف الساعى عنك ، فلو كان فى سعايته صادقاً لقد كان فى صدقه لئيما ، اذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه .

وقال المأمون لولده فى معنى الوشاة : يا بنى نزهوا أقداركم وطهروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتمويه سعايتهم ، فكل جان يده فى فيه ، وليس يَشى إليكم إلا أحد الرجلين : ثقة وظنين . أما الثقة فقد قيل إنه لا يبلغ ولا يسيئن بالوشاية قدره ، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه ، ويكذب ظنه ، ويرد باطله ، وما سمى رجل برجل

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقى

الىّ قط إلا انحط[1] من قدره عندى ما لا يتلافاه أبداً ، فلا تمطوا الوشاة أمانيهم فيمن يشون بهم . ولئن لم يترك المأمون مجالا للوشاة يخربون بيوت من يشون بهم ، ويزيلون نعمتهم ، أو يوردوتهم موارد الهلكة ، فما كان يخفى عليه خبر من الأخبار الخاصة والعامة فى القاصية والدانية ، حتى إنه لما ضاق صدره من تشدد بعض العلماء فى حوار خلق القرآن ، كتب إلى عامله بمائبهم رجلا رجلا ، وقال إنه أعلم بما فى منازلهم منهم . وخبّر فى هذه الرسالة عن عيب واحد واحد من الفقهاء وأصحاب الحديث ، وعن حالتهم وأمورهم التى خفيت أو اكثرها عن القريب والبعيد .

ولقد كان من أهم قوانين إدارته التوسعة على عماله حتى لا يسرقوا الرعية والسلطان ويضيعوا حقوقهم ؛ رفع منزلة الفضل بن سهل وعقد له على الشرق طولا وعرضاً وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم . وما كان المأمون بالخليفة الذى يتخلى عن خاصة عماله بأدنى سبب ، بل يغض الطرف عن مساويهم ويتركهم فى برزخ بين الرغبة والرهبة ، ولذلك استراح واستراح الناس معه ، وعلى قدر ما كان يراعى الخاصة يراعى العامة ، وقد قال فى وصيته للخليفة بعده : ولا تُغفل أمر الرعية والعوام فان الملك بهم وبتعهدك لهم . الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ، ولا ينتهين اليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم فى شىء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقرّبهم وتأن بهم .

وكان المأمون يحرص كل الحرص على الانتفاع برجاله ، ويطلق لهم حريتهم فى العمل ، وممن كان يستمع لمشورتهم احمد بن أبى دواد ، وهذا كان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدءوه . ولما أسند[2] المأمون وصيته عند الموت الى أخيه المعتصم قال فيها : وأبو عبدالله احمد بن أبى دواد لا يفارقك

(١) أخلاق الملوك للجاحظ (٢) وفيات الأعيان لابن خلكان

الشركة في المشورة في كل أمر فانه موضع ذلك ، ولا تتخذن من بعدى وزيراً .
ومن جملة ما أوصى به المأمون أخاه المعتصم في مرضه : خذ بسيرة أخيك في القرآن والاسلام ، واعمل في الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلته ، وكأن قد نزل بك الموت ، ومن ذلك عرفنا أن سياسة المأمون ملكه كانت علماً وعملا ، وهكذا يريد أن يكون عماله . وعظه رجل فأصغى اليه منصتاً فلما فرغ قال : قد سمعت موعظتك فأسأل الله أن ينفعنا بها وربما عملنا ، غير أنا أحوج إلى المعاونة بالفعال منا إلى المعاونة بالمقال ، فقد كثر القائلون وقل الفاعلون .

وكان في المأمون شيء من الجاذبية الفطرية يستميل بها القلوب ويجمعها على حبه ، ذلك أنه كان يعرف أمزجة أمته فيشغلها في المفيد ، ولا لغو ولا لهو في حياته ، فكان بادارته مثال الجد في الخوالف من بني العباس ، يفكر في أمر رعيته أكثر من تفكيره في أمور نفسه . كتب إلى عامله على دمشق في التقدم الى عماله في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل محله ، وأن يتقدم الى عماله في ذلك أشد التقدمة ، وأن يكتب الى عمال الخراج بمثل ذلك ، وكتب بهذا الى جميع عماله في أجناد الشام . واستجلب المأمون لمساحة أرض الشام مُسَّاح العراق والأهواز والري . وكان يعدل الخراج إذا شكا منه أهله . وكان العلاء بن أيوب لما ولي فارس من قبل المأمون يكتب عهد العمال فيقرؤه من يحضره من أهل ذلك العمل ، ويقول أنتم عيوني عليه فاستوفوه منه ، ومن تظلم الي منه فعلي انصافه ونفقته جائياً وراجعاً . ويأمر العمال أن يقرءوا عهده على أهل عمله في كل جمعة ويقول لهم : هل استوفيتم ؟

أصاب أهل مكة سيل جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب والي الحرمين الى المأمون يذكر له الحال ، فوجه اليه المأمون بالأموال الكثيرة وكتب الى الوالي :

«أما بعد فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله إلى أمير المؤمنين ، فبكاهم بقلب رحمته ، وأنجدهم بسَيْب نعمته ، وهو متبع ما أسلف اليهم ، بما يخلفه عليهم عاجلا وآجلا ، إن أذن الله فى تثبيت عزمه على صحة نيته . » قالوا : فصار كتابه هذا آنس لأهل مكة من الأموال التى أنفذها . وكان له فى كل بلد حوادث من الاحسان قلما يتسامى اليها أحد من الخلفاء . ولقد ذكر المؤرخون أن المأمون لما كان فى دمشق أضاق إضاقة شديدة ، ثم وافاه المال ثلاثون الف الف الف درهم . فقال ليحيى بن اكثم : أخرج بنا لننظر إلى هذا المال . فخرج وخرج الناس ، وكان قد زين الحمل وزُخْرف ، فنظر المأمون منه إلى شىء حسن كثير ، فاستعظم الناس ذلك واستبشروا به . فقال المأمون : ان انصرافنا الى منازلنا بهذا المال وانصراف الناس خائبين لؤم . فأمر كتابه أن يوقع لهذا بألف ألف ولذاك بمثلها ولآخر بأكثر منها حتى فرق أربعة وعشرين الف الف الف درهم (ثلاث مرات) ورجله فى الركاب ، ثم حول الباقى على عرض الجيش برسم مصالح الجند .

وذكروا أن المأمون عقد لأخيه أبى اسحق على ثغر المغرب ، ولابنه العباس على الشام والجزيرة ، ولعبد الله بن طاهر على الجند ومحاربة بابك . وفرق فيهم ما لم يفرق مثله أحد مذ كانت الدنيا : أمر لكل واحد منهم بخمسمائة ألف دينار . وما كان المأمون يضن بمال إذا كان فيه صلاح الدولة والرعية . وخمسمائة الف دينار يأخذها العامل ينفقها فى أتباعه ورجاله ومروءته . وكانت نفقة المأمون كل يوم ستة آلاف دينار يصرف أكثرها على الرعية ولا يناله منها إلا جزء طفيف . كتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون كتاباً يستعطفه على الجند ونصه : «كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من أجناده وقواده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، واختلت أحوالهم» . فقال المأمون والله لاقضين حق هذا الكلام . وأمر باعطائهم ثمانية أشهر . وكتب بعض ولاة الأجناد إلى المأمون :

إن الجند شغبوا ونهبوا . فكتب اليه : لو عدلت لم يشغبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا ، وعزله عنهم ، وأدر عليهم ارزاقهم .

ويتعذر تعداد أفضال المأمون على الأفراد ، وحرصه على اختيار رجاله وعنايته بآرائهم وتجاربهم ، وغرامه بالعفو والاحسان . قال احمد بن أبي خالد وزير المأمون لثمامة بن أشرس : كل واحد فى هذه الدار ، أى فى دار الخليفة ، له معنى غيرك ، فإنه لا معنى لك فى دار أمير المؤمنين . فقال له المأمون : إن له معنىً فى الدار ، والحاجة اليه بينة . قال : وما الذى يصلح له ؟ . قال : أشاوره فى مثلك هل تصلح لمن معك أو لا تصلح . وثمامة هو من الجماعة الذين كانوا يغشون دار الخلافة[1] وهى دار العامة ، ومنهم محمد بن الجهم والقاسم بن سيار ، وكان هؤلاء الرجال أشبه بالمستشارين بل أشبه بدعاة الدولة ، وعنوان الخلافة . هذا إلى ماهناك من شعراء وأدباء وعلماء وفقهاء يختلفون فى الاحايين إلى الخليفة فيشاركهم فى حديثهم ، وينافسهم فى صناعتهم ، ويفضل عليهم من هباته ، فيخرجون وألسنتهم تنطق بحمده ، وتدعو بدوام ملكه ، ويذكرون للعامة والخاصة ماهو عليه من بعد النظر فى سياسة الملك . قال الجاحظ : كان ابراهيم بن السندى مولى أمير المؤمنين عالما بالدولة شديد الحب لابناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ، وكان فخم المعانى فخم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أردّ على هذا الملك من عشرة آلاف سيف وسنان طرير لكان ذلك قولا ومذهباً .

أرانا قد خرجنا من وصف ادارة المأمون إلى وصف سيرته ، ونحن إلى ذلك مسوقون على الرغم منا ، وأنى لنا أن نصدر حكما صحيحاً على حكومة مطلقة قبل أن

---

(١) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ

تعرف أخلاق رأسها خليفة أو كان ملكاً أو أميراً . والرأس هو الكل فى مثل هذه الدول ، إذا صلح صلح الجسد كله .

الادارة على عهد المعتصم وأخلافه

إذا ذكر المعتصم فأول مايتبادر الى ذهن قارىء التاريخ الاسلامى أنه الخليفة الذى أشرك الترك فى الخلافة العباسية وأبعد العرب عنها ، فنقض أساس دولته بيده . ولئن كان المنصور بدأ بشراء المماليك واستخدامهم وتابعه من خلفوه على ذلك ، فان العباسيين مادخلوا فيما دخل فيه المعتصم من وضعه من العرب[١] واخراجهم من الديوان ، و إسقاط أسمائهم ، ومنعهم العطاء من العاصمة والولايات . فصار جند العباسيين من العجم والموالى .

اجتمع للمعتصم من الأتراك أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية ، وأبانهم بالزىّ على سائر جنده ، واصطنع قوماً من اليمن وقيس ومضر وسماهم المغاربة . وأعد رجال خراسان من الفراغنة والأشروسنية وغيرهم من الترك . فأصبح جند الخلافة[٢] على عهده خمسة أقسام : خراسانى وتركى ومولى وعربى و بنوى[٣] . وكثر الهرج والمرج فى فيالقهم ببغداد حتى اضطر أن يبنى لهم مدينة سامرة (سرّ من رأى) تخفيفاً عن أهل دار السلام، لأنهم كثروا على الناس وضاقت باعتداءاتهم الصدور .

فمن ثم كانت جيوش المعتصم كثيرة مستعدة للقتال عند أقل إشارة ، وكان السعد حليفه فى غزواته مع الروم . قيل إنه لما فتح[٤] عمورية كانت عدة عساكره خمسمائة الف فارس ، وعلى مقدمته خمسمائة من الخيول البلق ، وكانت

---

(١) خطط المقريزى (٢) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ (٣) الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة اليهم أباوى وبنوى محركة (٤) التيسير والاعتبار للاسدى (مخطوط)

الحاميات فى الثغور أبداً على أتم نظام ، وارتفاع الثغور الشامية (١) نحو المئة الف دينار تنفق (٢) فى مصالحها من المراقب والحرس والفوائير والركاضة (٣) والموكلين بالدروب والمخايض والحصون وغيرذلك من الأمور والأحوال ، ومايحتاج إلى شحنتها من الجنود والصعاليك (٤) . وتنفق الدولة على مغازى الصوائف والشواتى فى البر والبحر فى السنة على التقريب مائتى الف دينار ، وعلى المبالغة ثلاثمائة الف دينار . بيد أن المعتصم لم يكن بالنفقة على شىء أسمح منه بالنفقة على الحرب ، وربما كان للمعتصم بعض العذر فى ثقته بالأتراك فى جيشه ، وهم من القديم عرفوا بالحرب وأشتهروا بالطاعة لقوادهم . ولكن هذه الغلطة الادارية كان وبالها بعد على الدولة لأن الأتراك تسللوا إلى الوزارات والقيادات ، واستأثروا بالولايات والعمالات ، فأصبح لهم بعدُ السلطان الحقيقى على البلاد ، وللخلفاء صبغة غير عملية من الحكم .

أراد المعتصم أن يتشبه بأخيه المأمون فسار على أحكامه ونظامه ، ومن أين له أن يشبهه بعلمه وحلمه . فقد ذكر واصفوه بأنه كان قليل البضاعة من الأدب ، وإذا غضب لايبالى من قتل ولاما فعل . وقالوا إنه كان يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة من عمران الأرض التى يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش . ويقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرنى فيه . وأعطى أهل الشاش الفى الف درهم لكرى نهر لهم اندفن فى صدر الاسلام .

لم يبتدع المعتصم ولا ابنه الواثق شيئاً جديداً فى الادارة لم يعرفه المأمون

---

(١) الثغور الشامية هى طرسوس وأذنة والمصيصة والاسكندرونة وأولاس وعين زربة والكنيسة السوداء والهارونية وبياس . ومن ثغور الجزيرة مرعش وأنطاكية وبغراس (٢) الخراج لقدامة (٣) الفوائير الكشافة . الركاضة البريديون (٤) الصعاليك الجند غير المنظم

والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذى وضعه المنصور للدولة . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث تلك الروعة التى كانت لها فى عهد الخلفاء الأول . وقلّ بعد المأمون الخلفاء النادرون بذكائهم وتجاربهم ، فأصيبت الخلافة بعد عظائمها بفتور ، وأعمالهم بقلة الرواء والاتساق . ومن أهم الدواعى الى هذا الانحطاط فساد الادارة واختلال أحوال القضاء ، فنشأ ذلك من شراهة نفوس العمال والوزراء واضاعة الحقوق . ومن يصادر أو يموت عن عشرات أو مئات الألوف من الدنانير من هذه الطبقة كيف يصح لك أن تحكم عليه بالبراءة من مال السحت والرشا والسرقات . مساوىء ما فشت فى أمة إلا ضاع حق سلطانها وحق رعيته .

وكانت أهم عقوبة تقع على الظالم من العمال مصادرة الخليفة أو وزيره أو عامله الأكبر ، واصبح العمال فى الدولة العباسية صورة عجيبة من استنزاف الأموال ، وهم موقنون بان مصيرهم بما جمعوه إلى المصادرة والقتل . وقل فيهم من كان يكتفى بما قرره له الخليفة أو العامل الأعظم من الجرايات والمشاهرات ، وقد تكون على حد الكفاية وأكثر من الكفاية بالنسبة لتلك الأعصر ، وما حدث فيها من وفرة الثروة وعوائد الترف والسرف . وللوزراء ومن يلونهم طرق ابليسية فى السلب . والأرجح ان أهم موارد الوزراء والولاة كان من نهب جباية الدولة أو بيت مالها ، ومن الهدايا التى يضطرون صغار عمالهم الى تقديمها فى كل فرصة ، ومن رشا يتناولونها ممن يحاولون ان يستخدموا فى أعمال الدولة ، الى غير ذلك من وجوه انتهاب الأموال وإعنات الناس . وكانت هذه الطبقة من الوزراء والكبراء تصوم وتصلى وتتعبد وتتصدق وتغار على الاسلام والدولة ، ثم تجوّز الاحتيال لأخذ الأموال لأن الأبهة تقضى التوسع فى الانفاق !

قال عامل مصر لأحد من زاره من وزراء العباسيين فى الفسطاط ، فرأى جسر

يحتسب العمال عنه على السلطان ستين ألف دينار فى كل سنة ، وهو لا يكلف عشرة دنانير : ان جاريه ثلاثة آلاف فى الشهر ولا يمكنه وهو عامل مصر أن يكون بغير كتاب ولا عمال ولا كراع ولا جمال ولا اعطاء ولا افضال ، وله حرم وأولاد وأقارب وأهل يحتاج لهم الى مؤونة ، ولا يخلو أن يرد عليه زوار بكتب من الرؤساء فتقضى المروءة أن يبرهم و يصلهم ، الى غير ذلك مما يصانع به ، ومنها هدايا سنوية الى الخليفة والسيدة وأنجاله والقهرمانة وكتابهم وأسبابهم . و بهذا رأينا أن العامل كان مضطراً بحسب مصطلح ذلك الزمان الى أن يسد العجز فى موازنته الخاصة من طرق غير مشروعة ، وقلّ العف الجيد الطُعْمة . وكلما تقدم الزمن وزادت الخلافة العباسية عتقاً بليت الأخلاق فى النـاس وتبعه تقلقل الادارة ، لفسولة رأى القائمين بالدولة وتشعب أغراضهم .

ولقد كان الخلفاء على الأكثر يتخيرون للولايات والوزارات أكتب الناس وأعلمهم ، وللقضاء أقضاهم وأفتاهم . وحظوة الرجل عند قومه قد تكون من بواعث توسيد كبار الأعمال اليه خصوصاً الوزارات والولايات والقيادات . وأتى زمن بعد المعتصم والوزير أعجم طمطم لا يَفهم ولا يُفهِم ، وأصبح أنصار الدولة والغيراء عليها يتأففون ممن لا يحسنون العربية ، وإن كان منطوياً على صفات أخرى صالحة فى تدبير الملك ؛ وذلك لكثرة من دخل فى الأعمال من غـير العرب . وكان معظم العمال يحاولون أن يجروا الرعية على المعاملات القديمة ويحملوهم على الرسوم السليمة . ولكن تطلب أنفس الولاة والعمال الى العبث بحقوق الناس ، ليجنوا من ذلك ما تتلمظ له شفاههم من المغانم ، كان الباعث على استشراء الفساد فى معظم طبقات المجتمع .

ثم أصبح بعض العظماء [1] ينفرون من الوزارة لأن خاتمة حيـاتهم كانت التقتيل ، ولأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان فى الغالب إلى المصادرة والاعتصاب .

---

(١) عصر المأمون لأحمد فريد الرفاعى

ولقد عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت بتوالى الأيام المصدر الرئيسى لتحصيل المال ؛ فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ، ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم . حتى أنشؤا للمصادرة ديوانا خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة ؛ فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة . غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان وأخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ثم نفاه . ثروة ضخمة لو فكر الفضل أن يخلع طاعة الخليفة وينشىء بها ملكا له لما أعجزه ذلك . وغضب الواثق على كتاب الدواوين وسجنهم وأخذ منهم الفى الف دينار ، وفيهم بعض الوزراء ومن كانوا فى منزلتهم . وقلّ ان كان الوزير ينجو من نكبة إذا طالت أيامه ، وأيقن الخليفة انه اغتنى وعبث بأموال الدولة ، أو حفزته الحاجة إلى المال فتفقده فى خزائنه فلم يجده . ولم يعهد لوزير أن وزر وزارة واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء متسقين الا محمد بن عبد الملك الزيات ، وانتهى أمره بحرقه فى التنور ومصادرة أمواله . وكان من العلم والأدب فى الذروة العليا . وكان سلفه فى وزارة المعتصم احمد بن عامر الذى وصفه المعتصم ووصف نفسه بقوله : « خليفة أمى ووزير عامى[1] »

قال الوزير ابن الفرات : تأملت ماصار إلى السلطان من مالى فوجدته عشرة آلاف الف دينار ، وحسبت ماأخذته من الحسين بن عبد الله الجوهرى فكان مثل ذلك . فكأنه لم يخسر شيئاً لأنهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة ، وإذا صودر أحدهم على مال لم يكن فى وسعه أداؤه كله معجلا أجلوه بالباقى وساعدوه على تحصيله وجمعه . وتعددت أسباب المصادرة وجهاتها حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها . وكانت وزارة ابن الفرات ثلاث سنين وثمانية أشهر واثنى عشر يوما[2] — وولى الوزارة ثلاث مرات — وطولب بأمواله وذخائره

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢) صلة تاريخ الطبرى لعريب

فاجتمع منها مع ودائع كانت له سبعة آلاف ألف دينار ، فيما حكى عن الصولى ، وكان مشاهداً ومشرفاً على أخبارهم . قال : وما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات .

رد الواثق على بعض بنى أمية أموالهم ، وأكرم العلويين وأحسن اليهم ، وما أحسن أحد إلى آل أبى طالب من خلفاء بنى العباس ما أحسن اليهم الواثق . ما مات وفيهم فقير[1] وكان فى حلمه وحسن خلقه يشبه عمه المأمون ؛ يحب العدل و يعطف على أهل بيته و يتفقد رعيته . حشم[2] الأمراء عن الظلم ، وكان يجلس لحساب الدواوين بنفسه ، وترك جباية أعشار سفن البحر ، وكان مالا عظيما . وقيل انه سد باب اللهو والغناء ، أما هو فكان يسمع المغنيات ولا يتبذل ولا يسرف . واشتد على الناس كأبيه وعمه فى مسألة خلق القرآن حتى قيل انه أمر فى سنة ٢٣١ ، وهى سنة الفداء بين المسلمين والروم ، أن يمتحن[3] أسارى المسلمين ، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى فى الآخرة فودى به وأعطى ديناراً . ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم .

وعقد الواثق لبنيه الثلاثة ، وقسم الدنيا بينهم ، وكتب بذلك كتابا كما فعل جده الرشيد مع أولاده ، فأعطى ابنه الأكبر المنتصر من عريش مصر إلى افريقية المغرب كله إلى حيث بلغ سلطانه ، وأضاف إليه جند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزيرة وديار بكر وربيعة والموصل والفرات وهيت وعانة والخابور ودجلة والحرمين واليمن واليمامة وحضرموت والبحرين والسند وكرمان وكور الاهواز وماسبذان ومهرجان وشهرزور وقم وقاشان وقزوين والجبال . وأعطى ابنه المعتز خراسان وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله . وأعطى ابنه المؤيد إرمينية وأذربيجان وجند دمشق والأردن وفلسطين . وكان لولى العهد فى هذه الممالك الصلاة والمعاون ، أى الشحنة والشرطة ، والقضاء والمظالم والخراج والضياع والغنيمة والصدقات وغير ذلك من

---

(١) تاريخ بغداد لابن الخطيب (٢) دول الاسلام للذهبي (٣) تاريخ الطبرى

حقوق أعمالها وما فى عمل كل واحد منها من البريد والطراز وخزن بيوت الأموال ودور الضرب . يستخلفون على القطر الكبير حربا وخراجاً ، و يفوضون الأمور كلها للعامل يأذن اليه فى الحل والعقد بغير استئمار و يخلعون عليه سواداً . أى ان القطر الواحد بل المصر الواحد يحكم برأى عامله وجماعة ممن يختارهم لمشورته ومعاونته ، فينظر فى الأمور بحسب فهمه ومايوحيه اليه المحيط والعادة والعرف ، و يطبق الأحكام الشرعية على الكبير والصغير والملى والذمى ، و ينصب العاملُ الأكبر فى الولاية العمال من ذوى الرأى والتدبير والخبرة بالعلم والعلم بالسياسة ، و يشاور الفقهاء وأرباب التجارب ، و ينفق من المال ما تصلح به الولاية وما يوسع به على القراء والفقراء وذوى الحاجات ، وما تقتضيه من عطاء الجند وتقوية الثغور وشحن المصالح ثم يبعث الباقى من الأموال الى الخليفة . وللخليفة الخطبة والسكة ، فاذا كان العامل يحسن عمله ، ويعرف مدى التبعة الملقاة عليه ، يستسيغ الخراج ان كان ذا قوة أو آنس من جانب الحضرة ضعفاً . ولا يرجع فى العادة الى استشارة العاصمة الا فى عويص المسائل التى يمكن تأجيلها ، وتكون من حقوق الخليفة داخلة فى أمهات المسائل الكبرى فى الدولة . وقد يجتهد و يرتكب غلطا فتصرفه العاصمة ان أحست به أو توجعه فى العقوبة ، كما فعل المنصور لما بلغه ضرب عامله على المدينة عالمها مالك بن أنس فشق ذلك على الخليفة وأهان عامله وصرفه . ولكن كانت كتف مالك قد زالت عن مكانها بالضرب المبرح . فالعامل فى الحقيقة هو الملك الفعلى ولا يسع العاصمة الا أن تقره على مايقرر ويدبر فى أكثر الحالات . وقدظهرت مضار هذه الطريقة عند ما كانت العاصمة تعجز عن ضبط كل شىء من أمور الولايات لضعف الخلافة ووناء القائم على سدتها . وإذا كان هناك قضاة وولاة وناظرون ومفتشون وكتاب وحساب فان التنفيذ يختلف قوة وضعفاً بحسب كفاية العامل وسلطان الخليفة والوزير .

جاء المتوكل وضَغْطُ أمراء الترك وقوادهم يزيدُ شدة على الخلفاء فخلع على

عبيد الله بن يحيى وأمر أن لا يَعْرِض أحد من أصحاب الدواوين على الخليفة شيئاً، وأن يدفعوا أعمالهم إلى وزيره ليعرضها ، وأجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم، لما كان في نفسه من الأتراك واستبدادهم بالأمر . فكان عهده عهد جذب ودفع بين أصحاب الخلافة ومن رفعهم المعتصم على رقاب الناس من الترك ، وعلق المتوكل يداوي الأمراض البادية في جسم الدولة بإنفاق المال الذي جمعه المأمون والمعتصم والواثق على نحو ما فعل الأمين ؛ ففرق ماجمعه السفاح والمنصور والمهدي والرشيد من الأموال . فقال الناس إن أيام المتوكل كانت في حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها ورخص أسعارها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء . نعم كان هذا الخليفة منفاقا لا يحسن تدبير خرجه ، وله مع هذا عنـاية خاصة بديوان زمام النفقات . أنفق ما أنفق مما ادخره أجداده في بيوت أمواله ، فـكان هذا منه تدبيراً مؤقتاً غير ناجح ، وما استطاع أن يداوي ما تجلى من تسلط الأتراك على الدولة في عامة أقطارها وأعمالها .

رأى المتوكل شدة ضغط الترك على الخلافة في دار السلام فأحب الانتقال الى دمشق ليجعلها دار ملكه ونقل دواوين الدولة اليها . ولما أمن غائلة من توجس منهم خيفة عاد الى العراق وادعى أنه استوبأ مدينة دمشق . وكانت له أفـكار شاذة ، منها أنه كان يبغض عليّ بن أبي طالب وأهل بيته فعفى قبر الحسين بن علي وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من إتيانه . ولا تأويل الى هذا العبث إلا خوفه الشيعة وأن يتخذوا من زيارة الحسين وسيلة الى دعاية سياسية تزعزع أركان الملك العباسي .

واشتد المتوكل على أهل الذمة وأخذهم بلبس ألبسة تخالف لبـاس المسلمين على رؤوسهم وأوساطهم ، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة ، تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين . ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجرى أحكامهم فيها على المسلمين . وأمر أن يقتصروا في مراكبهم

على ركوب البغال والحمير دون الخيل والبراذين الى غير ذلك . وأمر باجلاء النصارى عن حمص لأنهم كانوا يعينون الثوار من اليمانيين، والثورة لا تكاد تنطفىء كل حين من حمص حتى سميت الكوفة الصغرى ؛ لكثرة قيام أهلها على العمال ، كما خصت تونس بالتشغب والقيام على الأمراء والخلاف للولاة .

ومع كل مابذل المتوكل قوى الأتراك عليه وقتلوه ، قيل بالاتفاق مع ابنه الذى خلفه ، وأخذ المتغلبة من الترك يستضعفون الخلفاء فأصبح « الخليفة فى يدهم كالأسير إن شاؤا أبقوه وإن شاؤا خلعوه وإن شاؤا قتلوه من غير ديانة ولا نظر للمسلمين » وجاء المنتصر يقاوم العلويين كأبيه المتوكل ويكتب الى عامل مصر (٢٤٧) أن لا يُقَبِّل علوياً ضيعة ، ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين العلوى وبين أحد خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة . ذلك لأن العلويين ما ناموا ساعة عن المطالبة بالملك، فمثل هذا الأمر يضيق عليهم دائرة حركتهم، وإن كان فى بعض ما يرمى اليه غير عادل .

ادارة المعتز والمهتدى والمعتمد

تولى المعتز الخلافة فأمر باحضار جماعة ممن صفت أذهانهم ، ورقت طباعهم ، ولطف ظنهم ، وصحت نحائزهم ، وجادت غرائزهم ، وكملت عقولهم بالمشورة . وحاول أن يتخلص من الأتراك وكانوا تأصلوا فى جسم الدولة وروحها وكانوا كثروا وأى كثرة فى العاصمة والولايات، وقدرت أرزاقهم وأرزاق المغاربة والشاكرية فى سنة ٢٥٢ فكان مبلغ ما يحتاجون اليه فى السنة مائتى الف الف دينار ، وذلك خراج المملكة لسنتين فاذا تأخر عطاؤهم فهناك المؤامرات والمشاغبات وخوف البدوات والنزوات والوثوب بالدولة .

ووسدت إمارة مصر لأحمد بن طولون (٢٥٤) من الأتراك، واستبد بجمع أعمال مصر لما وسد اليه أمر الأموال. وكان الأمير فى مصر من قبل ليس له الا الجند والشرطة وللعامل النظر فى الأموال، وكلاهما يراقب صاحبه، وهما متساويان فى المكانة وربما تقدم العامل على الأمير. والأقباط منذ كان الاسلام يتولون النظر فى الأموال؛ فتنظر اليهم الأمة نظرها الى الصل والثعبان، ويراهم صاحب الأمر مختلسين. وكان مما أعان ابن طولون على استقلاله بملك مصر ثم استيلائه على الشام وما اليها أن الخليفة أمره باعداد جيش لقتال أحد الخوارج فى الشام. وبعد استئصال الفتنة لم يفضّ الجيش فكان له قوة نافعة فى استقلاله. وكانت جمهرة الجيش من المماليك والديالمة يشتريهم كما يشترى الرقيق. وبلغت عدتهم أربعة وعشرين الف مملوك وأربعين ألفاً من العبيد الزنج ومن العرب وغيرهم. أما ابنه خمارويه فقيل إن عدة جيشه بلغت أربعمائة الف فارس.

ولئن حسنت حال مصر على عهد ابن طولون ودرّ خراجها واستفاض عمرانها — لحسن ادارته وسياسته حتى فضلوه على بعض الخلفاء، على كثرة ماسفك من الدماء — فان استيلاءه على الأمر فيها عدّ خروجا على الخلافة، وان كان يخطب لها بادىء بدء. ولم يتأت الخلاص من دولته إلا لما قوى العباسيون سنة ٢٩٢ فقتلوا آل بيتهم برمتهم، وخلفت الدولة الطولونية الدولة الإخشيدية[1] وهى دولة أعجمية أيضا.

(١) كان يطلق هذا الاسم (الاخشيد) على ملوك فرغانة وهو لفظ فارسى معناه ملك الملوك كما يطلق على ملوك الفرس الساسانية لقب شاهنشاه «ملك الملوك» وكسرى. وعلى ملك الروم باسيل وهو قيصر، وعلى ملوك الاسكندرية بطلميوس. واليمن تبع، والترك والخزر والقرغز خاقان، والترك الغزية حنوتة، والصين بغبور، والهند بلهرا، وقنوج رابى، والحبشة النجاشى، والنوبة كابيل، وجزائر البحر الشرقى مهراج. وجبال طبرستان اصفهبذ. ودنباوند مصمغان، وغرجستان شار. وسرخس زاذويه، ونسا وأبيورد بهمنه، وكش نيدون، وأشرو سنة أفشين، والشاش تدن، ومرو ماهويه، ونيسابور كنبار، وسمرقند طرخون. والسرير الحجاج، ودهستان صول، وجرجان اناهبذ، والصقالبة قبار، وملوك السريانيين نمروذ. والقبط فرعون، وباميان شيرباميان، ومصر العزيز، وكابل كابل شاه، والترمذ ترمذ شاه، وخوارزم خوارزم شاه، وشروان شروان شاه، وبخارا بخارا خداه، وكوزكان كوزكانان خداه — ذكر ذلك البيرونى فى الآثار الباقية.

وتولى المهتدى « والدنيا كلها مفتونة » فحاول إعادة الخلافة إلى رونقها وأمر باخراج الفتيان والمغنين والمغنيات من سامرا ونفاهم إلى بغداد ، وأمر بقتل السباع وطرد الكلاب وابطال الملاهى ورد المظالم، وجلس ليرفعها فرفعت اليه قصص فى الكسور فسأل عنها فقال وزيره سليمان بن وهب شيئا فى تاريخ الخراج منذ عهد عمر إلى عهد المنصور فأجاب المهتدى : معاذ الله أن ألزم الناس ظلما تقدم العمل به أو تأخر أسقطوه عن الناس . فقال أحدهم ان أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أموال السلطان فى السنة اثنا عشر الف الف درهم . فقال المهتدى علىّ أن أقرر حقا وأزيل ظلما وان أجحف ببيت المال .

وكان المهتدى آخر الخلفاء الذين كانوا يتولون بأنفسهم القضاء والمظالم ، وربما كانوا يجعلون القضاء والمظالم لقضاتهم كما فعل عمر مع قاضيه أبي ادريس الخولانى وكما فعل المأمون مع يحيي بن اكثم والمعتصم مع احمد بن أبي دواد ، وربما كانت تجعل قيادة الجيوش للقضاة ، وكان يحيي بن اكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم وكذا منذر بن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بنى أمية بالأندلس . وكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب .

ولما همّ الجند بقتل المهتدى خطبهم فقال : أما دين أما حياء كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والاقدام والجرأة على الله سواء عليكم من قصد الابقاء عليكم ، ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بارطال الشراب فشربها سروراً بمكروهكم ، وحبا ببوارکم . ثم ذكر لهم انه لم يصل اليه من دنياهم شيء وانه ليس فى منازل اخوته وولده فرش او وصائف أو خدم او جوارى ولا لهم ضياع ولا غلات . وكان حقيقة مقلا من اللباس والفرش والمطعم وامر باخراج آنية الذهب والفضة من

الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحيت[1].

وجيء بالمعتمد فقسم المملكة بين ابنه وأخيه الموفق فغلب أخوه عليه وشغل هو بلذاته ، وكثر دخول الزعانف في القبض على الأعمال والفتن منتشرة ؛ ومن أهمها فتنة صاحب الزنج ، والموفق يقود العساكر ، ويرابط ويرتب الوزراء والأمراء . وقيل ان المعتمد احتاج إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها فقال :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شيء في يديه

وطالت أيام المعتمد ولم يؤثر عنها ابداع جديد في الادارة والسياسة . وكان ديوان الموفق مائة الف مرتزق ، وكانت الدولة السامانية التي قامت في هذه الأيام في الشرق وتتمتع باستقلال داخلي واسع ، كما يقولون اليوم ، من أحسن الدول سيرة وملوكها من بني سامان أمنع ملوك الاسلام جانبا في عصرهم « لأنه[2] ليس في الاسلام جيش إلا وهم شذاذ القبائل والبلدان والأطراف ، إذا تفرقوا في هزيمة وتمزقوا في حادثة ، لم يلتق منهم جمع بعده ، غير جيش هؤلاء الملوك ، فان جيوشهم الأتراك المملوكون ، ومن الأحرار من يعرف داره ومكانه ، إذا فشل منهم قوم أو ماتوا ففي وفور عددهم ما يعاد من بين ظهرانيهم مثلهم ، وان تفرقوا في حادثة تراجعوا كلهم إلى مكان واحد ، فلا يقدح فيهم ما يقدح في سائر عساكر الأطراف ، ولا سبيل لهم إلى التفرق في العساكر والتنقل في الممالك كما يكون عليه رسوم صعاليك العساكر وشحنة البلدان » .

وكانت طريقتهم في إقامة الأحكام ببلاد خراسان[3] أن تضرب المقارع بين أيدي أجلة الأمراء ويشهد كل أحد في كل شيء ، غير أن في كل بلد عدة من

---

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢) مسالك الممالك للاصطخري (٣) المسالك والممالك لابن حوقل

المزكين فان طعن الخصم على الشاهد سئل عنه المزكى ولا يتحنك فيه إلا فقيه أو رئيس . ويختارون أبداً ببخارى أفقه من بها وأعفهم ، يرفعونه ويصدرون عن رأيه ويقضون حوائجه ، ويولون الأعمال بقوله . وفى نيسابور رسوم حسنة منها مجلس المظالم فى كل يوم أحد وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره ، فكل من رفع قصة قدم اليه فأنصفه وحوله القاضى والرئيس والعلماء والأشراف ومجلس الحكم كل اثنين وخميس بمسجد رجاء لا ترى فى الاسلام مثله . وكانوا فى فارس[1] يفضلون أهل البيوتات القديمة فى أعمال الدواوين يتوارثونها فيما بينهم ، وليس فى دواوين الاسلام ديوان أصعب عملا وأكثر أنواعا من ديوان فارس لاختلاف ربوعها على المتقلدين لها .

هـذا مثال من حالة الدولة السامانية التى نشأت فى عهد المعتضد الطويل . وذكر المؤرخون انه على قلة معرفته بسياسة الملك عمرت[2] مملكته ، وكثرت الأموال وضبطت الثغور ، وانه كان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد ، وكان ولى والدنيا خراب والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً فسكنت الفتن ، وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهدأ الهيج ، وسالمه كل مخالف ، ودانت له الأمور ، وانفتح له الشرق والغرب ، واديل له من اكثر المخالفين . وكان سريع[3] النهضة عند الحادثة ، قليل الفتور ، يتفرد بالأمور ، ويمضى تدبيره بغير توقف ، ولى الأمر بضبط وحركة وتجربة ، وكفّ من كان يتوثب ويتشغب من الموالى .

وأمر المعتضد بافتتاح الخراج فى النيروز المعتضدى وهو فى حزيران من شهور الروم ، وذلك للرفق بالناس ، وكتب الى الأقطار برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الأرحام ، وإبطال ديوان المواريث وكان من قبل يلحق كثيراً من الناس إعنات فى مواريثهم ، ويتناول على سبيل الظلم من أموالهم ، ويتقلد جبايتها أناس

(١) مسالك الممالك للاصطخرى (٢) تاريخ ابن الطقطقى (٣) التنبيه والاشراف للمسعودى

يجرون مجرى عمال الخراج ، شيء لم يكن فى خلافة من الخلافات الى أن مضى صدر من خلافة المعتمد ، فجرى العمل بذلك على سبيل تأول ، فأزال المعتضد ذلك وأمر أن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله ورسوله وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته . وأن يصرف جميع عمال المواريث فى النواحى ويبطل أمرهم ، ويرد النظر فى أعمال المواريث الى الحكام ، وكانوا يرتادون القضاة من أهل البلاد نفسها .

وللمعتضد مذهب جميل فى سياسة عماله ؛ بلغه أن عامله على فارس أظهر أبهة فى ولايته وأنفق ماوقعت له به هيبة فى نفوس الرعية ، فسأل عن رزقه فقيل له ألفان وخمسمائة دينار فى الشهر ، فقال اجعلوها ثلاثة آلاف ليستعين بها على مروءته[1] . وكتب اليه فى عامل عجز فى ضمانه وهو مسجون بأنه كان فى أيام ولايته يفرق عشرين كرا حنطة فى كل شهر على حاشيته والفقراء والمساكين من أهل معرفته ، وأنه فرق ذلك فى هذا الشهر على عادته . فقال : سرّنى قيامه بمروءته ومعروفه . وأعفاه من أداء مبلغ كان يطالب به ، ورده الى عمله وأحمد ما كان منه .

سارت الخلافة فى طريق سوى على عهد المعتضد لسطوته ومهابته وعفته وإمساكه ، فكان مع حرصه على إبقاء سلطانه يخافه عماله ويكفون عن المظالم ، واستعمل بعضهم الشدة فى حفظ الأمن . بلغ عامله بدمشق[2] أن رجلا أعرابياً فى أذرعات نتف خصلتين من شعر أحد فرسان الدولة ، فطلب الوالى معلماً يعلم الصبيان وقال له : تخرج الى اليرموك وأعطيك طيوراً تكون معك فاذا دخلت القرية فقل لهم : إنى معلم جئت أطلب المعاش وأعلم صبيانكم ، فاذا تمكنت من القرية فارصد لى الاعرابى الذى نتف سبال الفارس وخذ خبره واسمه، فاذا رأيته قد وافى أرسل الطيور

(١) نشوار المحاضرة للتنوخى (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر

بخبرك ؛ ثم قبض على الاعرابي وقطع رأسه وصلبه وضرب الجندي مائة عصاة وأسقط اسمه من الديوان ، لأنه استخذى للاعرابي حتى فعل بسبالته ما فعل .

كان من جميل سيرة المتضد مع عماله وخوفه البطش بهم إذا جنوا ما يعاقبون عليه أنه إذا نكب رجلا من جلة العمال ورؤسائهم وكل به من يحفظه من قبله وشدد الوصية فى صيانته ، ويُظْهِر أن هذا التوكيل للمطالبة وزيادتها والتشدد فيها لا ليحفظ نفسه ، لئلا يطمع العامل . وكان يقول : هؤلاء أكابر من العمال الذين قامت هيبتهم فى نفوس الرعية وعرفوا أقطار البلاد ، هم أركان الدولة وأعضاء الوزارة والمرشحون لها فان لم تحفظ نفوسهم فسد الأمر . وهذا الغاية فى الوقوف على نفسية العمال وحفظهم فى أنفسهم . ومع هذه المسامحة واللين لم يرتفع السواد سواد العراق لأحد بعد عمر بن الخطاب بمثل ما ارتفع له أيام المعتضد[١] .

وجمع المعتضد تسعة آلاف الف دينار فاضلة عن جميع النفقات وأراد أن يسبكها نقرة واحدة إذا أتمها عشرة آلاف الف ويطرحها على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف الف دينار وهو مستغن عنها « بعد النفقات الراتبة والحادثة ، واطلاق الجارى للأولياء فى سائر النواحى وجميع المرتزقة بها وبالحضرة . »

رد المعتضد ببعد نظره مصر إلى حظيرة الخلافة بعد ان كاد يذهب بها احمد ابن طولون ، وكتب إلى ابنه خمارويه بولايته عليها هو وولده ثلاثين سنة . وذلك من الفرات إلى برقة ، وجعل اليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل فى كل عام من المال مائتى الف دينار عما مضى وثلاثمائة الف عن كل عام للمستقبل . ولعل ما ساقه إلى هذا التسامح مع الطولونيين ما تناصرت الأخبار عليه من ان الدولة العبيدية ظهرت اعلامها فى المغرب فأحب ان يضع الطولونيين حاجزاً بينه وبينهم . ومن جميل حيلته انه طلب إلى ابن طولون ان يزوجه[٢] ابنة ابنه

---

(١) تاريخ الوزراء للصابى (٢) خطط الشام للمؤلف

خمارويه واسمها قطر الندى وقال : «ما قصدت بهذا الزواج إلا افقار ابن طولون لأنه يضطر ان يجهزها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل . وكان الأمر كما قال فانها جهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام . وهذا هو الزواج السياسى المثمر والترتيب الادارى الحكيم .

الادارة على عهد المكتفى والمقتدر وكلام فى الوزراء

اكتفى المكتفى بنهج منهج والده المعتضد فى الادارة ، وكان وزيره العباس بن الحسن يقول لنوابه بالأعمال : انا اوقع لكم وانتم افعلوا ما فيه المصلحة . وقد يأخذ الوزير سبعة آلاف دينار فى الشهر راتباً ، ومن الوزراء من فادوا بخمسمائة الف دينار ليصلوا إلى الوزارة . ومنهم من اعطوا المنجمين مائة الف دينار ليحتالوا على الخليفة ويغيروا خاطره على احد وزرائه ثم يتوصلون إلى منصب الوزارة . وبهذا أدركنا ان الخلفاء انحطوا والوزراء كذلك .

بيد أن قواعد الدولة لم تتزلزل دفعة واحدة لأن المعتضد ثبت قواعدها ، ومن يجىء بعده مهما ارتكب من الأغلاط لا يقضى على عامة التراتيب الموضوعة للخلافة منذ سنين ، فصح ما قيل من ان بنى العباس [1] قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مراراً لأن اصلها ثابت وبنيانها راسخ . وخلف المكتفى فى بيوت الأموال من العين ثمانية آلاف الف دينار ، ومن الورق خمسة وعشرين الف الف دينار . وفى رواية انه خلف مائة الف الف دينار عيناً وعقاراً وأوانى بمثلها .

واستخلف المقتدر طفلا ووالدته وخالته وأم ولد المعتضد تدير الملك ، حتى ان هذه السيدة جلست بالرصافة للمظالم تنظر فى الكتب يوماً فى كل جمعة ، فأنكر الناس ذلك واستبشعوه وكثر عيبهم عليه والطعن فيه . ولم يكن فى جلوسها أول يوم

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه

طائل . وفى اليوم الثانى احضرت القاضى فحسن امرها وخرجت التوقيعات عن سدادها فانتفع بذلك المظلومون وسكن الناس إلى ما كانوا نافرين من قعودها ونظرها .
فالمقتدر فى سنيه الأولى خصوصاً كان يتدبر بآراء النساء والحاشية ، والسيدة وقهرمانتها ومن يجرى مجراهن من نساء القصر ، يتحكمن فى كل امر ، ويتدخلن فى العزل والنصب . وأمروا صاحب الشرطة ببغداد ان يجلس فى كل ربع من الأرباع فقيهاً يسمع من الناس ظلاماتهم ويعتنى فى مسائلهم حتى لايجرى على أحد ظلم .
وأمروه ان لا يكلف الناس ثمن الكاغد الذى تكتب فيه القصص وان يقوم به ، والا يأخذ الذين يشخصون مع الناس اكثر من دانقين فى اجعالهم .

ورد المقتدر رسوم الخلافة [1] الى ما كانت عليه من التوسع فى الطعام والشراب وإجراء الوظائف . وكان فى داره أحد عشر الف خادم خصى من الروم والسودان . وزاد فى أرزاق بنى هاشم وأعاد الرسوم فى تفريق الأضاحى على الفقراء والعمال وأصحاب الدواوين والقضاة والجلساء ، وأسرف فى الأموال فمحق من الذهب ثمانين الف الف دينار [2] وفرق فى خمس وعشرين سنة ما جمعه المنتصر والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى . وحار الناس فى امر دولة المقتدر [3] وطول ايامها على وَهْى أصلها وضعف ابتنائها ، ولم ير الناس ولم يسمعوا بمثل سيرته وأيامه وطول خلافته .

على انه كان جيد العقل ، صحيح الرأى ، ولكنه كان مؤثرا للشهوات . قال التنوخى [4] : ولقد سمعت ابا الحسن على بن عيسى الوزير يقول ، وقد جرى ذكر المقتدر بحضرته فى خلوة : ما هو الا أن يترك هذا الرجل النبيذ خمسة أيام متتابعة حتى يصح ذهنه فاخاطب منه رجلا ما خاطبت افضل منه ولا ابصر بالرأى واعرف بالأمور وأسد فى التدبير . ولو قلت انه إذا ترك النبيذ هذه المدة يكون فى اصالة

---

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب (٢) لطائف المعارف للثعالبى (٣) تاريخ الطبرى (٤) نشوار المحاضرة للتنوخى

الرأى وصحة العقل كالمعتضد والمأمون ومن اشبههما من الخلفاء ما حسبت أن أقع بعيداً ، وما يفسده غير متابعة الشراب ولا يخبله سواها اه .

قيل انه كان بين ابن زبر القاضى وبين على بن عيسى الوزير عداوة وعجز ابن زبر عن رضاه فألقى رقعة فى ورق المظالم ، وفيها أن رجلا من خراسان رأى فى ثلاث ليال متوالية العباس بن عبد المطلب فى وسط دار السلام يبنى داراً فكلما فرغ من موضع تقدم رجل لهدمه . فقال له : ياعم رسول الله من هذا الذى بليت به ؟ فقال . هذا على بن عيسى كلما بنيت لولدى بناء هدمه . فقرئت الرقعة على المقتدر فقال : ان هذه الرؤيا صحيحة يصرف على بن عيسى ويقبض عليه . فما جاء آخر النهار حتى وافى ابن زبر ومعه عهده بقضاء مصر ودمشق . فان صحت هذه القصة كان تصديق المقتدر حيلة القاضى من أغرب ما أثر من ضعف العقول .

وعلى بن عيسى هـذا أكبر وزراء ذاك العهد ومن الأسر العريقة فى خدمة الدولة منذ ايام المعتضد[1] كان من الثقة والصيانة والصناعة على جانب ، عامل المصادرين من الوزراء والعمال بالرفق ، وكتب إلى كل واحد من العمال بما جرت العادة به من تشريف أمير المؤمنين إياه بالخلع ، ورد أمر الدواوين والمملكة اليه ، وأقرهم على مواضعهم ، وأمرهم بالجد والاجتهاد فى العمارة ، وكتب اليهم بانصاف الرعية والعدل عليها ، ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها . كما كان يطالب بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها . ونظر الى من تعود اقتطاع الأموال السلطانية واقامة مروات نفسه فيها ، وقصر فى العمارة واعتمد غيره . وعمر الثغور والبيمارستانات وأدر الأرزاق لمن ينظر فيها ، وأزاح علل المرضى والقوام ، وعمر المساجد الجامعة وكتب الى جميع البلدان بذلك ، ووقع الى العمال وكتب اليهم فى أمر المظالم وأمر بأن يستوفى الخراج بغير محاباة للأقوياء ، ولا حيف على الضعفاء . وساس

(١) تجارب الامم لابن مسكويه

الناس أحسن سياسة ، و رسم للعمال الرسوم الجميلة ، وأنصف الرعية وأزال السنن الجائرة ، ودبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وتصون ، حتى أسقط الزيادات فى اقطاعات الجند والعمال وغيرهم ، لما رأى نفقات السلطان زائدة على دخله زيادة مفرطة تحوج الى هدم بيوت الأموال وصرفها فى نفقات يستغنى عنها .

وكان يجرى على خمسة وأربعين الف انسان جرايات تكفيهم وخدم السلطان سبعين سنة لم يزل فيها نعمة عن أحـد . قال الصولى : ولا علم انه وزر لبنى العباس وزير يشبهه فى زهده وعفته ؛ بلغه ان أسارى المسلمين فى الروم ساءت حالهم وان الروم يحاولون تنصيرهم فغمه ذلك . ولما كان يعرف أن الخليفة لا يريد قتال الروم عمد إلى طرق سلمية فندب بطريق انطاكية وجاثليق القدس أن يكتبا إلى الروم كتابا يقبحان هذه المعاملة ويتوعدان ، فاضطرت دولة الروم أن تحسن معاملة المسلمين . وما عابوا على على بن عيسى الوزير الا أنه كان ينظر كثيراً فى جزئيات الأمور فربما شغلته عن الكليات [١] .

منع على بن عيسى من اكراه التناء والمزارعين « على [٢] تضمين غلات بيادرهم بالحزر والتقدير ، وإلزامهم حق الاعشار فى ضياعهم على التربيع ، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبرة ، قبل إدراك غلاتهم وثمارهم ، وإكراه وجوههم على ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفه مجحفة » ولما غلب السجزية على فارس جلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة ففض خراجهم على الباقين وكمل بذلك قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التكملة تستوفى على زيادة تارة ونقصان . وجاءه قوم من أجلاء فارس وقالوا نمنع علاتنا وتعتاق فى الكناديج [٣] حتى تهلك وتصير هكذا « وطرحوا من أكمامهم حنطة محرقة » ونطالب بتكملة ما وجب

---

(١) الفخرى لابن الطقطقى (٢) تاريخ الوزراء للصابى (٣) واحد هاكندوج وهى الخزانة الصغيرة تجعل فيها الحبوب وهى معربة

علينا فتدعونا الضرورة الى بيع نفوسنا وشعور نسائنا وأداثها حتى تطلق الغلة وهى على هــذه الصورة « ثم رموا من أكامهم تيناً يابساً وخوخاً مقدوداً ولوزاً وفستقاً و بندقاوغبيراء وعنابا » وقالوا وهذا كله خراج لقوم آخرين والبلد فتح عنوة ، فاما تساوينا فى العدل أو الجور . فأنهى على بن عيسى ذلك إلى المقتدر بالله وجمع القضاة والفقهاء ومشايخ الـكتاب والعمال وجلة القواد فى دار الوزارة وقد جعلها ديوانا ، وتناظر الفريقان من أرباب الشجر وأرباب التكملة فقال أرباب الشجر : هذه أملاك قد أنفقنا عليها أموالنا حتى أنبتت الغروس فيها وحصل لنا بعض الاستغلال منها ، ومتى ألزمت الخراج بطلت قيمتها . وقد كان المهدى أزال المطالبة ورسم الخراج عنها . وقال المطالبون بالتكملة ما شكوا به حالهم فيها واستمرار الظلم عليهم بهـا . ورجع إلى الفقهاء فى ذلك فأفتوا بوجوب الخراج و بطلان التكملة .

هذا تمثيل للادارة على ذاك العهد وصورة من أعمال الوزراء . و بأمثال على ابن عيسى وابن الفرات كانت القوة تدخل على ملك بنى العباس إذا عراه الضعف ويجبرون نقص الخلفاء . و بمثل الوزير الخاقانى والوزير الخصيبى توجع القهقرى . فان كان على بن عيسى بعيد النظر فى أمور الدولة جد عارف بما يصلحها ، عفاً عن أموال الرعية ساهراً على مصلحتهم الحقيقية فان ابن الفرات كان نافذاً فى عمل الخراج وتدبير البلاد وجباية المال وافتتاح الأطراف . وكلاهما من بلغاء الـكتاب ومن العارفين بأدب الملك .

وكان للدولة رسوم فى تخريج رجال الادارة ومما ذكروه ان باذرويا كان يتقلدها جلة العمال . قال ابن الفرات : سمعت أبا العباس أخى يقول من استقل بباذرويا استقل بديوان الخراج ، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة . وذلك لأن معاملتها مختلفة وقصبتها الحضرة ، والمعاملة فيها مع الوزراء والأمراء والقواد والـكتاب والاشراف ووجوه الناس ، فاذا ضبط اختلاف المعاملات واستوفى على هذه الطبقات صلح للأمور الـكبار .

وبعد أن كان الخلفاء على استعداد تام لادارة الملك أصبحوا يعتمدون على وزرائهم فان كانوا علماء أخياراً جرت الأمور على سداد، وان كانوا جهالا أشراراً زاد البلاء والشقاء، وطمع أصحاب الأطراف والنواب وخرجوا عن الطاعة، وزالت عن الجند والرعية هيبة الخلفاء وخلت من الأموال خزائنهم . والواقع إذا استثنينا عهد المعتضد لا نشاهد فى خلفاء بنى العباس بعد عهد المأمون من كان ذا عبقرية فى الادارة ، وقد لا تنتظم الأحوال حتى بوجود الوزراء المحنكين لأن للرأس تأثيره ، والخليفة مرجع الأعمال وجميع السلطات فان كان على اتزان تختفى العيوب فى إدارة سلطنته المستبدة الطويلة العريضة ، وإلا فالانحلال باد والملك فى تزلزل . وهناك خليفة يدبره أخوه ، وآخر تدبره أمه وجواريها ، وغيره تدبره قهرمانته ، وثالث يدبره وزيره . وقلّ فى بنى العباس أن جاء خليفة كالمأمون والمعتضد من يصدر عن رأى نضيج ويعنى بملكه عناية حقيقية .

وكان الخلفاء فى الجملة مشتغلين بأنفسهم ودفع أعدائهم عنهم، وكثير منهم من يقتل بأيدى الجند . وقلّ فيهم الرجل الرشيد بعد القاهر ، وكانت الأمور تجرى بقوة التسلسل ، وبنو بويه ثم بنو سلجوق وغيرهم هم أصحاب الدولة بالفعل والخليفة لاعمل له فى الحقيقة ، بل هو أشبه بخيال يختفى وراءه صاحب السلطان إذا أراد أمراً لا يرضاه العامة إلا إذا صدر عن الخليفة .

نعم صار الخليفة تابعاً للملك أو المتغلب ولم يبق شىء يقال له إدارة ؛ لأن الخليفة لا يحكم حتى على بيتـه فأصبحت الادارة إدارة الملوك والأطراف وإدارة الفرس والترك ، والشأن فى السلطان شأنهم لا تكاد تسمع للخلفاء اسماً . وكان من عادة أكثر خلفاء العباسيين أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم . جرت بذلك سنتهم إلى آخر أيام المستنصر فلما ولى المستعصم آخر خلفائهم ببغداد أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم . وكان من عادة حبس أولاد الخلفاء ضعفهم بل بلاهتهم إذا أسـندت

اليهم الخلافة ، وربما انصرف أكثرهم فى دور احتباسهم إلى اللهو والشراب فاذا جاءوها عجزوا عن إدارة الملك لأنهم عاجزون عن سياسة أنفسهم .

ولقد كان الرسم فى عهد الخلفاء الأول من بنى العباس ان يراقب الوالد ابنه والابن أباه والأخ اخاه على طريقة مستورة عن الأنظار ، وتوسد إلى ابنــاء الخلفاء قيــادة الجيوش وإدارة الولايات ويشتركون فى السلطان إلى حد معين ، وتؤخذ آراؤهم فى النوازل ويدخلون فى مجالس المشورة فيكون لهم بذلك شيء من الوقوف ينفعهم يوم تولى الأمر ويعرفون انهم شركاء فى هذا الملك لهم رأى يعتد به ويجب عليهم الاهتمام لمصالحه

وفى عصر الانحطاط حجب ابناء الخلفاء فأصبح اكثرهم إلى الجهل والبلاهة يدرسون إدارة الملك فى الكتب وربما لا يرخص لهم ان يدرسوا فى كل كتاب ويسمعون من مربيهم وأساتيذهم ما يريدون أن يسمعوهم ، ولــكنهم لا يعلمون بالعمل شيئاً كثيراً يصح ان يكون مادة لحياتهم وحيــاة الخلافة إذا أتت نوبتهم لتولى هذا المنصب الجليل .

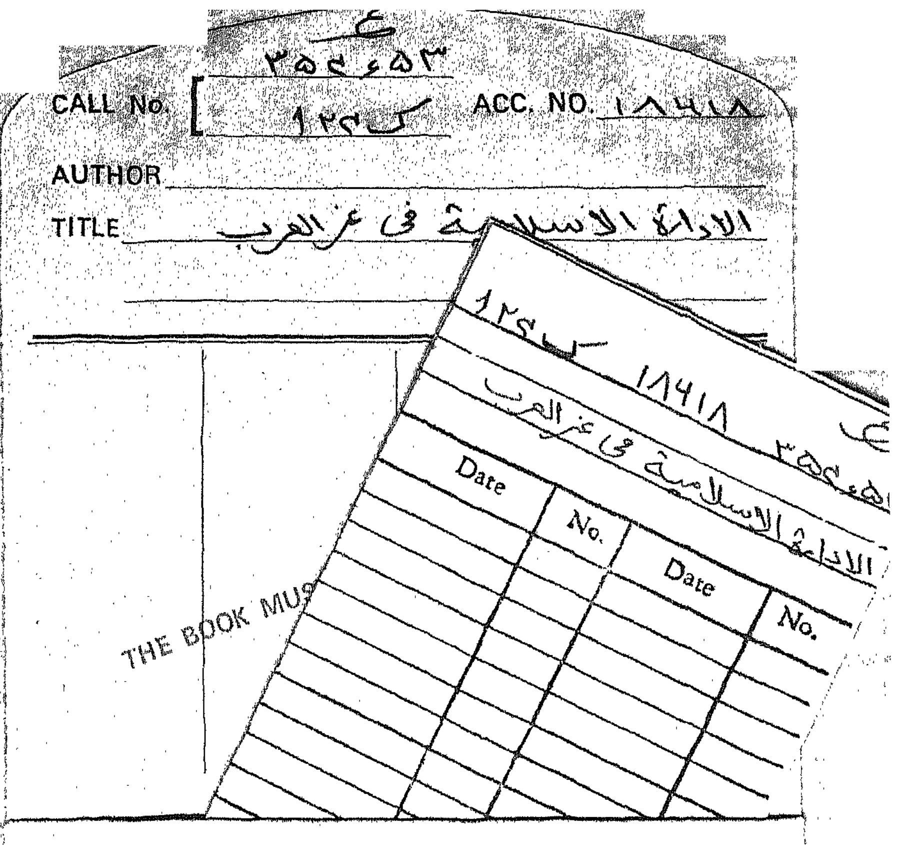
« تمت »



فهرس

الادارة الاسلامية فى عز العرب

صفحة





MAULANA AZAD LIBRARY
ALIGARH MUSLIM UNIVERSITY

RULES:—

1. The book must be returned on the date stamped above.
2. A fine of **Re. 1.00** per volume per day shall be charged for text-books and **10 Paise** per volume per day for general books kept over-due.